الصورة الفنية في شعر المقاومة
عند ابن سناء الملك

د/محمد محمد موسى أبو جبل
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الآداب -جامعة أسيوط

الصورة الفنية في شعر المقاومة عند ابن سناء الملك

ابن سناء الملك هو القاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك السعدي المصري (٥٥٠ – ٦٠٨ هـ) [١] .

وفي مقدمة ديوانه الضخم الذي يبلغ قريباً من ثمانية آلاف بيت يقول عنه الدكتور/عوض الغباري [٢]:إنه أكبر شاعر مصري في العصر الأيوبي، ويقول عنه

١- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ط ٣ جـ ٥ ص ٦٥ غير أنه ذكر فيه أنه ولد سنة ٥٤٥ كما ذكر ذلك الصفدي وليس سنة ٥٥٠ هـ خلافاً لما جاء في مقدمة ديوان ابن سناء ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م وما جاء في تاريخ الأدب العربي ط ١٩٨٤م لشوقي ضيف ج ٦ ص ٢٠٣ ، وفي (العاطل الحالي والمرخص الغالي) تحقيق الدكتور / حسين نصار ط ١٩٨١م ص ٣١٥ – ٣١٦،ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكر في ص ٤٣(ابن سناء الملك حياته وشعره).

٢- الديوان السابق ص ج .

شوقي ضيف [1]: " لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث " .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً تفتحاً راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه حيث أعجب بشعره ولما يبلغ العشرين من عمره [2] في دلالة على نبوغه الأدبي المبكر ، وكان للقاضي دور هام في توجيه هذا الشعر خاصة في المراحل الأولى من إنتاجه الشعري [3] .

١- في كتابه المذكور (تاريخ الأدب العربي) ص ٢٠٦ . كما ترى في كتاب (العاطل لحالي والمرخص الغالي) ص ٢٦٧ - ، ٣١٥ - أقوالاً في الإشادة به .

٢- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ص ٢٠٤ ، وانظر (النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة) ط ٢ سنة ٢٠٠٠م ص ٢٧٣.

٣- مقدمة الديوان ص جـ . أما القاضي الفاضل فهو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين اللخمي البيساني ، ولد ببيسان سنة ٥٢٩ هـ ونشأ بمصر وتعلم واشتغل بالدرس ، وبالأدب والرسائل ....

ومنذ وزر صلاح الدين للخليفة العاضد في مصر اتخذه لنفسه كاتباً واسع العلم ذكي الفؤاد....

وقد جمع القاضي بين فن الكتابة والسياسة وتدبير الملك ، ونجح في كليهما نجاحاً كبيراً، فكان غير سند لصلاح الدين . في كفاحه ، وواجه صلاح الدين أعداء العرب والمسلمين بالسيف والحرب والقتال وعاضده القاضي الفاضل ، فحمى ظهره بالعون والتدبير وحشد الإمكانات وتعبئة القوى في مصر لمدده .

وكان صلاح الدين يقول في حقه في الملأ من الناس : " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل "

واستمر به الحال على هذا إلي أن توفي صلاح الدين ، فحزن عليه الفاضل ولم يطق الوزارة بعده ، وقد ظل زمناً وجيزاً وزيراً لابنه الأفضل ثم استعفي وعاد إلي القاهرة عاكفاً على الأدب=

ومما قاله عنه ابن سعيد [1] في إشادته بشعره : " وقد برز وامتد طلقه في ميدان الإحسان امتداد عمره ، فلم يكن منه بالقاهرة فرسا رهان . بل ظهر سابقاً في حلبته ، وأئمة الشعراء خلفه ؛ وشاهده ما أنشد له " .

ومع تأملي في ديوان ابن سناء المذكور فإني أتفق مع عبد الحكيم راضي في تعريفه بهذا الديوان وذلك في قوله :"إن شعر ابن سناء الملك – فضلاً عن قيمته الفنية وكونه مثلاً بارزاً لإبداع مصر في مجال الأدب العربي _ يلقي الضوء على فترة من تاريخنا عزيزة علينا ، هي فترة الكفاح المشرف الذي قاده السلطان صلاح الدين الأيوبي ضد جحافل الصليبيين في محاولتهم لاستيطان بلادنا ، والاستيلاء على مقدساتنا الإسلامية والمسيحية ، وهي المحاولات التي تثبت الأحداث كل يوم أنها لم تتوقف وإن تغيرت الأدوار واختلفت المواقع وتبدلت الوجوه "[2] .

=والعلم ، يجمع حوله تلاميذه ومريديه من الأدباء والكتاب والشعراء إلي أن توفي سنة ٥٩٦ هـ ودفن بالقاهرة (الأدب في العصر الأيوبي) سنة ١٩٨٠م . د. محمد زغلول ص ١٩٢ – ١٩٦، وانظر الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية د. عبد اللطيف حمزة ص ٦٩ ، وانظر هامش الديوان ص ١٦ .

١ – النجوم الزاهرة ص ٢٧٣ .

٢ – ص ب . حيث " شاء القدر أن يدفع بصلاح الدين لتسلم لواء القيادة في معركة التحرير الإسلامي ضد قوى الغزو الصليبي والزحف الفرنجي البربري على الشرق المتحضر .

وقد بهرتهم خيراته ومدنيته ، فراحوا يمنون أنفسهم بالأسلاب والغنائم ، وراح دعاتهم وأولو الأطماع يتدافعون ويدفعون بالأغرار باسم الصليب ليحاربوا وليكسبوا أرضاً ، وليوطدوا أقدامهم في قواعد يستغلونها لأغراضهم .

ولكن صلاح الدين أمكنه أن يحسر موجة الطغيان وأن يرد عادية الصليبيين ويحطم آمالهم وأحلامهم بغنائم الشرق الإسلامي وأسلابه " (الأدب في العصر الأيوبي ص ٣٤) .

كما أرى نفسي متفقاً مع ما يراه الدكتور / عوض الغباري في تقديمه لهذا الديوان [1] من أن شعر ابن سناء الملك يحمل صوراً زاخرة بتجارب حياته ... مما أثرى شعره ، وجعله تعبيراً نابضاً بالروح الإنساني ، والتعبير الفني الذي يسم شخصيته شاعراً مصرياً صميماً أحب وطنه ، حيث حفل شعره بهذا الارتباط الوثيق بذاته وبوطنه وبأحوال مجتمعه ،ولغة عصره ، إضافة إلي ارتباط شعره بأهم الوقائع السياسية في تاريخ مصر في العصر الأيوبي وهي الحروب الصليبية، خاصة ما يتعلق منها بجهاد صلاح الدين الأيوبي لاسترداد الكرامة العربية، وتحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين في موقعة حطين المباركة سنة ٥٨٣هـ مما أدى إلى وجود تيار شعري وأدبي مصرى يعتد بالقوة ، ويتمسك بالكرامة ، ويعتز بالنفس ، ويثق في نصر الله لجنوده المؤمنين .

ومن هنا ترى لابن سناء الملك إسهامه الواضح في هذه الحركة الأدبية التي دارت حول الحروب الصليبية وشكلت أهم المعالم الفنية للأدب المصري في العصر الأيوبي .

وقد دفعني ما ذكرته بإيجاز في هذه المقدمة إلي الكتابة تحت عنوان هذا البحث الذي سأقدم فيه أولاً توضيحاً موجزاً للصورة الفنية – كما أراها _ يليه ذكر توضيح موجز أيضاً للمراد بشعر المقاومة – خاصة وأن المقاومة قد شوهت في عصرنا بتعريفات مغرضة – حتى يمكن على هذا الأساس ذكر بعض النماذج المتنوعة من شعر ابن سناء الملك في المقاومة مقرونة بتوضيح لأبرز الصور الفنية فيها مع ما يتطلبه ذلك من تعليقات ، وأحكام ونتائج .

---

١ – ص ، د ، هـ بتصرف .

وخلاصة القول فيما يختص بالحديث عن الصورة الفنية أن المعنى يكون موجوداً في أعماق الشاعر قبل التعبير عنه ، وأن الخلاف بينه قبل التعبير وبعده محصور فيما يحدث فيه من تحسين أو تقبيح أو خصوصية وتأثير . هذا التحسين أو التقبيح قد يسمى إيجازاً ، أو توكيداً ، أو قصراً ، أو تقديماً وتأخيراً ، وبالجملة ما نسميه تركيباً [1] ، كما يسمى في أحيان أخرى مجازاً ، أو تشبيهاً ، أو استعارة، أو كناية [2]، كما قد يستعين الشاعر بفن أو أكثر من فنون البديع وبالجملة هذا هو ما يسمى بالصورة الفنية .

والصورة الفنية – بهذا الفهم – طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير [3] .

ولمزيد من إيضاحها يمكن القول إنها صورة شاملة تجمع كل ما يتخيله الأديب في توصيل فكره ووجدانه حيث يكون حريصاً على نقل المتلقي إلي الشهد الذي رآه وانفعل به وعني هو بتصويره .

كذلك يمكن القول إنها – سواء كانت في الشعر أم في النثر – ما يتبعه الأديب شاعرً أو ناثراً من منهج أو طريقة أو أسلوب في التعبير بغرض التأثير في سامعيه ، وجذبهم إليه إذا تناول موضوعه تناولاً فنياً مرتبطاً بعاطفته وخياله

١– وهو ما يدرس في إطار ما تعارف عليه البلاغيون بعلم المعاني .

٢– وهو ما يدرس في علم البيان .

٣– الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . د . جابر ص ٣٥٧ – ٣٥٨ . بتصرف وانظر ما جاء في (نقد الشعر في مصر الإسلامية) للدكتور / عوض الغباري ص ١٦٠ – ١٦١ .

وتجربته فيتمكن المعنى في نفس القارئ والسامع ، ويصور فيها كل مرئياته ووجداناته .

حيث تعتبر الصورة الفنية الوسيلة الأولى للتعبير الشعري بما يتميز به من تجارب شعرية تمتزج فيها المشاعر مع الأفكار[1] وتتمثل أهمية هذه الصورة في الطريق التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه ، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ، ونتأثر به ، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلي المعنى الذي تعرضه ، وتفجؤنا بطريقتها في تقديمه [2].

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الصورة الفنية لا تثير في ذهن المتلقي صوراً بصرية فحسب ، بل تثير صوراً لها صلة بكل الإحساسات الممكنة التي يتكون منها نسيج الإدراك الإنساني ذاته .. ولا ترجع قيمتها إلي أنها تحاكي الأشياء أو تجعلنا نتمثلها من جديد ، وإنما ترجع قيمتها إلي أنها تجعلنا نرى الأشياء في ضوء جديد ، وخلال علاقات جديدة ، تخلف فينا وعياً وخبرة جديدة[3].

وشعر المقاومة هو الشعر الذي يقوم على تمجيد الجهاد وتحرير البلاد مع مدح المجاهدين وهجاء المتقاعسين سواء كان ذلك الجهاد حربياً يقوم على

١- وقد جعل الرافعي الصورة والشعر شيئاً واحداً ... ص ٣٨ مجلة الآطام يناير ٢٠٠٥م . وهنا نتذكر مثلاً ما قاله الدكتور / محمد مصطفى هدارة أن الشعر لا يمكن أن يسمى شعراً ما لم تدخله " الصناعة الفنية " الدقيقة لتبرز معانيه وتضعها في صورة رائقة معجبة يضفي عليها الخيال ألواناً جذابة فتعلق بالنفس وتناط بالعقول (انظر الصنعة الفنية ص ٨) .

٢- ص ٣٦٣ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . وبالطبع فإن الشعراء يتفاوتون في ذلك تبعاً لمواهبهم وقدراتهم ووسائلهم التي يتبعونها في تصويرهم لما بداخلهم .

٣- ص ٢٤١ نفسه بتصرف .

الاستبسال في القتال ضد الأعداء الطامعين مع التعبئة له ، أو جهاداً نفسياً وأخلاقياً يقوم على احتمال الشدائد ومقاومة الاستسلام للضعف أو الذل مع الشعور بالعزة والدعوة إلي صيانة الشرف والعرض وإغاثة الملهوفين .

وقد كان طبعياً أن يحدث الغزو الصليبي أثره في نفوس العرب والمسلمين حيث شعر المسلمون بالحسرة والغيظ على تفلت أجزاء عزيزة من العالم الإسلامي من أيديهم ، وبتلك الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم ، وتلك المجازر الدامية التي كانت تطيح برءوس المسلمين [1]، وبأولئك الشراذم الوافدين من كل بلد يستبيحون الأقوات والحرمات بلا رادع أو وازع ، ويستهينون بالمقدسات الدينية ويحولون المساجد إلي كنائس وصوامع .

ويكفي مثلاً أن يتذكر العرب والمسلمون ما فعله الصليبيون عندما استولوا على مدينة بيت المقدس ، حيث انطلقوا في شوارع المدينة ، وإلي الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز .

أما المسجد الأقصى فقط فقد قتلوا فيه ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف .

وقد ذكر أنه شوهدت أكوام الرءوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة وطرقاتها .

وأمام وحشية الصليبيين فر يهود بيت المقدس جميعاً إلي معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين ، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة ، فأشعلوا النار في المعبد ، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين .

١- انظر تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ترجمة د. السيد الباز ط ٣ سنة ١٩٩٣م ص ٤٢٤ .

وقد أدى ذلك كله إلي خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود بل إن كيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث [١] .

وهكذا دفعت العرب والمسلمين الحسرة والغيظ والشعور بالآلام إلي محاولة المقاومة والدفاع ورد المغتصبين بالدعوة إلي الاتحاد والجهاد [٢].

وقد ظلت الحروب الصليبية نبعاً لا ينضب لموضوعات الجهاد في أدب العصر حيث ألهبت عواطف المسلمين والعرب ، وكانت عاملاً هاماً في ظهور هذا اللون الأدبي من الشعر الحماسي الذي غلب على شعراء هذا العصر[٣] والذي يسميه البعض بالشعر السياسي أو شعر القومية الإسلامية[٤].

حيث أذكت هذه الحروب حواس الشعراء وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار ، فأصبح الشاعر لا يمدح استجابة لدافع خارج عن شعوره أو تحقيقاً لرغبة مفروضة عليه ... وإنما يستمد من نفسه الوحي والإلهام ، ويجد في قرارتها الحافز والدافع : وتتلاءم الصورة التي يرسمها مع ما ينطبع في النفوس جميعها من صورة البطل الذي يدافع عن الإسلام ويحمي المسلمين من وحشية هؤلاء المعتدين الباغين الظالمين[٥].

١- تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ط ٣ سنة ١٩٩٣م ترجمة د. سيد الباز ص٤٢٦ – ٤٢٧ بتصرف ، الأدب في العصر الأيوبي ط ٨٠ د. محمد زغلول ص ١٨ – .

٢- الأدب في العصر الأيوبي د. محمد زغلول ص ١٧ ، ٢١ بتصرف .

٣- نفسه ص ١٧١ – ١٧٢ بتصرف .

٤- الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية ص ٥٧ – ٥٨ بتصرف.

٥- ابن سناء الملك حياته وشعره . د. عوض الغباري ص ٣١ .

ومع أثر الحروب الصليبية في إثارة النخوة والحمية وظهور شعر المقاومة كان لظهور شخصية صلاح الدين أيضاً أثر واضح في إيقاظ الوعي الشعبي بما اشتهر به من صفات إسلامية وعبقرية عسكرية وانتصارات عظيمة على الأعداء جعلته محل إعجاب وتقدير ومثلاً يحتذى به [1] .

والذي فعله صلاح الدين من دفاع عن الإسلام والعروبة يجعل كل المحيطين به مفتونين بشجاعته وبلائه العظيم .

ومثل هذه الشخصية العظيمة لا تجعل الشعر الذي مدحه – أو مدح من سار على نهجه – تملقاً أو بعداً عن الجانب العاطفي ؛ لأن المدح في هذه الحالة نتاج لسياق حافل أصيل مثله هذا القائد العظيم ، ومثله عصره ، وارتبط الأدب فيه بالحروب الصليبية ارتباطاً وثيقاً [2]..

وبالتالي فإن هذا الشعر الذي جاء في إطار تمجيد الجهاد والدعوة إليه ومدح المجاهدين والتهاني بانتصاراتهم وإظهار بطولاتهم والفرحة بها وهجاء المتقاعسين أو التعريض بهم مع التنديد بالمعتدين وكشف جرائمهم هو من صميم شعر المقاومة (كما جاء في التعريف السابق لهذا الشعر) وهذا هو ما تراه في

١– النجوم الزاهرة ط ٢ سنة ٢٠٠٠م ص ١٠٧ – ، الأدب في العصر الأيوبي ص ٥٠ ، مقدمة ديوان ابن سناء ص ل ، وصلاح الدين وعصره ترجمة ممدوح عدوان ط سنة ١٩٩٣م ص ٢٤٠– ٢٤١ .

٢– مقدمة ديوان ابن سناء ص ل . بتصرف ، نقد الشعر في مصر الإسلامية ص ٨٧ – ٨٨ .

ديوان ابن سناء الملك بصورة كبيرة حيث ترى قصائده المتعددة في مدح الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ورفاقه البارزين وأتباعه من بعده [1].

وقبيل البدء في ذكر بعض النماذج المختارة من شعر المقاومة لابن سناء وبيان صورها الفنية والرأي فيها أود هنا أن أظهر بإيجاز اتفاقي في منهج النقد مع إيليا الحاوي في قوله : " من الضروري أن نقبل على القصيدة كوحدة حية ، محاولين أن ننفذ إلي روحها ، إلي قلب التجربة التي يعانيها الشاعر عبرها " .

وقوله : " لا شك أن إيجاز المعاني في صيغة نثرية ضروري كلمحة أولى نمهد بها لارتياد القصيدة " .

وقوله [2]: " ينبغي أن يدرك الناقد أبداً ، أن الشاعر لا يفسر تجربته تفسيراً ... هو يعاني التجربة معاناة ، يذهل بل ينخطف عبرها ، ويحاول في شعره أن ينقل ما عاناه وانذهل به ... ومعاناة الشاعر هي غالباً نتيجة واضحة لأسباب نفسية وفنية بعيدة الغور ... " .

وسأبدأ في تناول النماذج المختارة من قصائد ابن سناء بنماذج له في مدح صلاح الدين باعتباره الرمز الأول في عصره للمقاومة والبطولة والجهاد ، وإليه يرجع الفضل في توحيد البلاد العربية وكسر شوكة الصليبيين .

---

١ – وبعد استعراض النماذج التي سأختارها من شعر المقاومة لابن سناء سأقوم بالرد على أبرز ما وجه لمثل هذا الشعر من نقد وذلك زيادة في إبراز مكانة هذا الشعر ودفعاً لما يعتريه من شبهات .

٢ – وذلك في كتابه : (في النقد والأدب ج ١ ط ٤ سنة ١٩٧٩م) ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

وأول قصيدة أبدأ بها هي قصيدته التي بلغت ثلاثة وخمسين بيتاً والتي أنفذها إليه وهو بالشام وهنأه فيها بانتصاره على الصليبيين في كثير من المعارك سنة ٥٧٥ هـ[١] وأسره بعض فرسانهم وشجعانهم ، وكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ، ومقدم الاستبارية وصاحب طبرية وغيرهم [٢].

ومما جاء لابن سناء فيها قوله في الأبيات التالية :

٢١ – أنام بني الإسلام في كهف أمنه وأوسعهم عدلاً وأسكنهم عدنا

٢٢– وعوضهم من بعد سخطهم رضىً وبدلهم من بعد خوفهم أمنا

٢٥– أقام بدار الكفر تجبى له الجزا وتودى له القتلى وتسبى له الحسنى[٣]

---

١ – وكان صلاح الدين المولود سنة ٥٣٢ هـ والمتوفى سنة ٥٨٩ هـ (تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ص ٣١ ، هامش الديوان المذكور ص ١٧٢) قد تحمل عبء القيادة بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ حيث أخذ يعيد للبلاد الشامية والمصرية وحدتها ، وأخذ ينزل ضرباته بالصليبيين (البطولة في الشعر العربي دكتور / شوقي ضيف ص ٨٩) .

وكان ابن سناء عند إنفاذه هذه القصيدة قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ولم يكن قد بلغ العشرين عند تولي صلاح الدين عبء القيادة (والذي كان قبل تاريخ هذه القصيدة بست سنوات)

٢– وقد جاءت هذه المقدمة مع القصيدة بالديوان ص ٣٢١ – ٣٢٤ .

٣– يلحظ هنا أن الشاعر يصف دار المعتدين الصليبين بالكفر ، كما سنرى في مواضع من شعره أنه سيصف الصليبيين بأنهم كفار، وهذه – كما جاء في كتاب الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية ص ٧ – ٨ – " من الأساليب الشائعة في العصر الأيوبي لما اقترن به من حروب صليبية . وهو وصف قد يؤذي نفوس المسيحيين كما تتأذى نفوس المسلمين بما يقرءونه عن أسلافهم في كتب الصليبيين . =

٣٠- أقمت بها التوحيد لله وحده وأنسيت فيها الروح والأب والابنا[1]
٣١- ولما رأوه أدبروا حين عاينوا أعنة خيل لا تعود ولا تثنى
٣٥- مضى ملكهم في أول الأمر هارباً يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
٤٠- وأضحى أسيراً " بادويل " وغيره قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
٤١- أسارى جبارى لا يرجون فدية ولا يأملون الدهر فكاً ولا أمنا
٤٢- وهل زادهم بالسجن ضيقاً عليهم وقد جعل الأرض الفضاء لهم سجنا
٤٢- بكى الكند و"اليسكند " لا وحشة لهم ولكن على نفسيها أسبلا الجفنا
٥٣- فلا زلت تبقى للنبي ودينه وأمته ، يفنى الزمان ولا تفنى

وفي البيت ٢١ (أنام بني الإسلام ...) يعبر عن اطمئنانهم وإحساسهم بالأمان بأنهم ناموا فالمشغول لا ينام ، و(أنام) غير (نام) لأن نام بمحض إرادته وأنام بفعل غيره وفيها إشارة أن الذي هيأ هذا النوم الانتصارات . وفي (بني الإسلام) إشارة إلي كل المسلمين حتى الذين ليسوا في أرض المعركة وفيه إشارة أيضاً إلي أن هذا الخطر داهم لأن العدو لا يكتفي بالأراضي المقدسة فإذا انتصر لا قدر الله طارد المسلمين في كل مكان لأنه عدو للدين وليس للأفراد وفي

= ولكن ليس بد للقارئ من أن يحمل هذه العبارات على ظروف زمانها ويفهم مرماها في الأجواء التي أحاطت بها " .

خاصة وأن القرآن قد وصفهم بذلك .

١- أشار في النصف الثاني من البيت إلي عقيدة النصارى ... وفي البيت رقم ٣٥ يشير إلي مضايقة الملك الناصر لفرخشاه بالدوين ملك أورشليم عند Belfort ، حتى أنقذه هنفري من أيدي المسلمين وفي البيت رقم ٤٠ اسم بادويل محرف بالدون وفيلا البيت رقم ٤١ ورد في إحدى نسخ الديوان " أسارى حيارى " انظر هامش الديوان ص ٣٢٣ .

قوله (كهف أمنه) تشبيه بليغ شبه الأمن بالكهف بما فيه من صيانة لأن الكهف عادة يكون في داخل الجبل فلا يمكن اقتحامه ويهيئ لكل اللائذين به الأمان المطلق

وفي البيت كناية توحي بمدى ما تعرض له المسلمون على يد الصليبين من فزع وخوف وظلم وجحيم قبل أن ينقذهم صلاح الدين ويزيل عنهم بانتصاراته هذه الأهوال ويهيئ لهم حياة العدل والعزة والأمن والسعادة .

وفي البيت (٢٢) يؤكد هذه الصورة بالبديع المتمثل في الطباق والاقتباس من القرآن الكريم (آية ٥٥ من سورة النور) مع حسن التقسيم والاستعارة التي تم فيها تجسيم للمعنويات حتى تتم المقايضة .

وفي البيت (٢٥) " أقام بدار الكفر تجبى له الجزا وتودى له القتلى وتسبى له الحسنى " يصور الأرض التي حرها وأقام فيها بأنها كانت داراً للكفر وقد أقام فيها ليطبق شرع الله على الأعداء بعد هزيمتهم ، وفي هذه الصورة الاستعارية تجسيم للكفر بجانب ما تراه من قوة صلاح الدين وهيبته حيث ترى قوله (تجبى له الجزا) كناية عن الانتصار حيث لا يتم ما اشتملت عليه إلا بالقوة وقوله(تسبى له الحسنى) تدل على قوة أكثر .

وفي البيت (٣٠) " أقمت بها التوحيد ... " يلجأ لتجسيم التوحيد في تلك الاستعارة المكنية ثم يكني عن عقيدة النصارى .

وفي البيت (٣١) " ولما رأوه أدبروا ... " فيه إشارة إلي جبنهم وشجاعته وقد اشتمل البيت على مجاز مرسل (أعنة خيل) ويعبر البيت عن نصر الله لصلاح الدين على الأعداء بالرعب ويؤكد ذلك هذا التصوير البديع الذي اشتمل عليه البيت(٣٥) " مضى ملكهم في أول الأمر هارباً ... " والذي يوحي بمدى الهلع والخوف الذي سيطر على ملكهم – مستخدماً عنصر الحركة المتمثل في الإدبار ثم الهرب في البيتين وفي ذلك استدعاء للحديث النبوي الشريف

(نصرت بالرعب مسيرة شهر[1]) حيث صور ملكهم يحس بالطعن المتوالي على قفاه دون طعن حقيقي .

وهذه الأبيات ينبعث منها موسيقى حربية صاخبة ، فطبول الحرب تدوي وحركات الفرار والإقبال ، ووقع حوافر الخيل ... تمثل لوحة معبرة عن اشتداد المعركة وقد أجاد الشاعر في اختيار الألفاظ .

وهو يثير عاطفة الرهبة واشتداد المعركة وهولها حين يتحدث عن اللقاء في أتون المعركة كما يثير عاطفة الإعجاب بحسن مقاومة القائد والمسلمين بالسيوف ويحمل القارئ أن يشاركه إعجابه بالقائد البطل .

وقد جاءت الأبيات (٤٠ – ٤٣) لتصور لنا كيف أتى الفرج بعد الكرب والنصر بعد الصبر لعباده المؤمنين بقيادة صلاح الدين على أعدائه الباغين ليذوقوا جزاء ما اقترفوا وليذرفوا الدمع وليتجرعوا جميعاً مرارة الخوف والرعب الذي أذاقوه لغيرهم ظلماً وعدوانا مراراً وتكراراً .

ثم يأتي البيت (٥٣) " فلا زلت تبقى للنبي ... " بدعاء يكني فيه عن مدى قدسية هذا الجهاد وحاجة الأمة الإسلامية إليه خاتماً دعاءه بذلك الطباق (يفنى – لا تفنى) الذي يوحى بمدى تعلق القلوب بصلاح الدين وحاجتها إليه رمزاً للدفاع والمقاومة .

هذا بجانب توفيق الشاعر في بناء جمله وتنويع أسلوبه في الأبيات .

ولا شك أن لهذه الأبيات – وما شابهها في معانيها وصورها الفنية- تأثير كبير في شحذ همم المسلمين للتوحد وللدفاع عن أعراضهم ومقدساتهم ولإدخال

١– صحيح مسلم ج ١ . حديث رقم ٥٢١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ص ٣٧٠ – ٣٧١ .

السكينة في قلوبهم مع الثقة في نصر الله لهم وقذف الرعب في قلوب أعدائهم المعتدين .

وقد استمر صلاح الدين يصطدم بالصليبيين من حين إلي حين والشعراء يتبارون في الإشادة به وتهنئته ، وفي يوم ٢٧ من صفر سنة ٥٧٩ هـ تيسر له فتح مدينة منيعة من مدن الشام هي (حلب) بعد أن عجز عماد الدين زنكي واليها عن الدفاع عنها ، وفرح المسلمون كثيراً بهذا الفتح وهنأه الشعراء به ، وخف من أجله ابن سناء الملك وأنشد بين يديه قصيدة طويلة بائية (سبعة وخمسين بيتاً [١]).

وفي سياقها أرى ابن سناء الملك يلتقى – كما يقول د. عوض الغباري[٢] – بأبي تمام كما التقى صلاح الدين بالخليفة العباسي المعتصم فيتناص معه في بائيته الشهيرة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويخلد ابن سناء الملك فتح صلاح الدين لحلب في قصيدته ، ومطلعها :

١- بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب [٣]

فيلتقي في ذلك مع تخليد أبي تمام للمعتصم في فتح عمورية [٤].

١- الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية ص ٧٣ – ٧٦ بتصرف، وانظر ديوان ابن سناء السابق ص ١ – ٤ .

٢- مقدمة الديوان ص ، و ، ز ، ح ، ط بتصرف كبير .

٣- وقد ضم هذا البيت في بنائه قصراً وفي تصويره كناية وفي بديعه تصريعاً ..

٤- حيث أرى بعد قراءة القصيدة أن الشاعر (كما جاء في هامش الديوان ص ٤) قد تأثر فيها من حيث معانيها وقافيتها وبحرها بقصيدة أبي تمام في فتح عمورية .

ومطلع البيت الأول يشير إلي ما بدأ يشعر به المسلمون من قومية إسلامية نادوا بها إبان حروب صلاح الدين وخلفائه ضد الصليبيين حيث كان الأدب شعراً ونثراً هو اللسان المعبر عن هذا الشعور ، وقد محيت فكرة الشعوبية التي تفضل العرب على الأعاجم وحلت محلها فكرة " نصرة الإسلام " وحظي الترك بنصيب واضح من مدح الشعراء وكان من ذلك هذا المطلع الذي بدأ به ابن سناء [1]، كما أن البيت يثير فينا عاطفة الاعتزاز بصلاح الدين كقائد يحمي حمى الإسلام ، ويدافع بجنوده أعداءه .

وقد تميزت هذه القصيدة لابن سناء ببراعته في توظيف البديع توظيفاً فنياً رائعاً روعة النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين ، والتحم فيه الفن المصري الأدبي البديعي مع فن أبي تمام الذي تأثر بالفن البديعي في الشعر المصري أثناء إقامته في مصر ...

وتناص ابن سناء الملك مع أبي تمام فلم يقل شأواً عنه مع تأثره به ؛ ذلك لأن البديع في الأدب المصري فن له جذوره الثقافية والفنية الراسخة في وجدان المصريين وعقولهم ..

ولم تمنع صور البديع التي زخر بها الأدب المصري من الدفق الشعوري ، والأصالة الفنية ، حيث ترى ابن سناء الملك قد جسد هذا النبض الإنساني والفني في قصيدته في مدح صلاح الدين والتهنئة بفتح حلب ، ومن ذلك قوله في هذه القصيدة :

١- راجع ابن سناء الملك حياته وشعره ص ٣١ .

٢-وفي زمان ابن أيوب غدت حلب من أرض مصر وعادت مصر من حلب[١]
٣- ولابن أيـوب دانت كل مملكة بالصفـح والصلـح أو بالحرْب والحرَب
٤- مظفـر النصر منعوت بهمته إلى العزائـم مـدلول على الغلـب
٥- والدهر بالقدر المحتوم يخدمه والأرض بالخلق ، والأفـلاك بالشهب

وقد كان البديع وراء هذه القوة العارمة في هذه الأبيات وغيرها من هـذه القصيدة تجسيداً للفرحة الغامرة بظفر النصر في كثافة تصويرية مساوقة للفرحـة الطاغية به وذلك بسب النصر على الأعداء وما تحقق فيه من توحيد للعالم العربي.

وليس البديع في هذه القصيدة شكلاً لفظياً وإنما هو سداة الشعر ولحمتـه ؛ بناء فاعل في نسيج القصيدة المنطلقة انطلاقاً هادراً هدير جـيش صـلاح الـدين المظفر في إيقاع تصويري ممتع ومعبر :

١٦- أتى إليهـا يقـود البحـر ملتطماً والبيض كالموج والبيضات كالحبب[٢]
١٧- تبدو الفوارس منه في سوابغهـا بيـن النقيضين من مـاء ومن لهب
١٩- جمالهـم من مغـازيهم إذا قفلوا حمالـة السبي لا حمالـة الحطـب
٢٠- فطـاف منهـا بـركن لا يقبله إلا أسنـة أطـراف القنـا السلـب

---

١ - يشير في البيت إلي توحيد صلاح الدين بهذا النصر لمصر والشام استعداداً للمعركة الفاصلة بينه وبين الأعداء :

وقد جاءت الكناية في البيت الثالث والرابع مع الجناس في الثالث بجانب المبالغة القويـة بهـذه الصورة الكلية الرائعة التي ضمت بعض الاستعارات المكنية في البيت الخامس بما فيه كذلك من قصر وحذف لتوحي جميعها بتأييد الله له بالنصر .

٢- البيض : السيوف ، والبيضات : جمع بيضه وهي الخوذة . وفي البيت (١٩) إشارة إلـى قوله تعالى : " وامرأته حمالة الحطب " سورة المسد آية (٤) . وفي البيـت (٢٠) يـشير إلـي الطواف حول الكعبة واستلام الحجر الأسود وتقبيله (هامش الديوان ص ٢) .

فالمفارقة التي يقدمها الطباق بين الماء واللهب تجسد إعجاز هذا الجيش الذي استطاع أن يجمع هذين النقيضين ببسالته وحسن استعداده وإعداده لعدة الحرب ، والتناص بالقرآن الكريم (حمال السبي ، لا حمالة الحطب) يطرد اطراداً يشكل ظاهرة أخرى في الأدب المصري .

وقد ضمت هذه الأبيات بعض الصور الفنية التي أسهمت بشكل كبير في التعبير عن مشاعر ابن سناء وأفكاره والتي من أبرزها تلك الاستعارة في النصف الأول من البيت ١٦ (يقود البحر) والتشبيهان (والبيض كالموج والبيضات كالحبب) في نصفه الثاني ، وحسن التفسير في البيت ١٧ (النقيضين من ماء ومن لهب) بالإضافة إلي الكناية في البيت ١٩ (حمالة السبي لا حمالة الحطب) ، وفي البيت ٢٠ (فطاف منها بركن) مع الاستعارة المكنية التي اشتمل عليها هذا البيت الأخير (لا يقبله إلا أسنة أطراف القنا) حيث تتعاون كلها مع البديع في صورة كلية في تجسيد إعجاز هذا الجيش بقيادة صلاح الدين بالإضافة إلي ما تراه من قصر في البيت ١٩ والبيت ٢٠ .

لقد نصر صلاح الدين بالرعب ، وفي هذا استدعاء للحديث النبوي الشريف [١] في قول ابن سناء :

٣٠- إلي بلاد أجابت قبلما دعيت ... للخاطبين ولولا الخوف لم تجب

٣١ – لولم تجب يوسفاً [٢]من قبل دعوته ... لعاد عامرها كالجوسق الخرب

٣٢- خافت وخاف وفر المالكون لها ... فالمدن في رهب والقوم في هرب

١- كما سبق القول أيضاً في قصيدته السابقة .

٢- ويوسف في هذا البيت هو نفسه السلطان الناصر صلاح الدين منقذ بيت الله القدس من أيدي المشركين أبو المظفر يوسف بن أيوب.. (النجوم الزاهرة ص ١٠٧ ،وفيات الأعيان ج ٤ ص٦).

وفي كلمة (الخاطبين) تصوير يحتاج إلي تأمل إذ جعل المهر هو الرعب والخوف من الأعداء مع عشق البلاد للفاتحين الخاطبين ، والجناس في (المدن في رهب والقوم في هرب) وقد أتت فيه الجملة الثانية نتيجة للجملة الأولى دال على نجاح الشاعر في توظيف البديع بدلالاته الأسلوبية والموسيقية الرائعة . كل ذلك بجانب أثر تلك الصورة التشبيهية في البيت ٣١ (عامرها كالجوسق ..) وتلك الصورة الكنائية في الجناس المذكور في تحقيق ذلك النجاح للشاعر .

أما صورة صلاح الدين صانع النصر فتتجلى في قوله :

٣٦- أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها بمالك فطنٍ أو سائسٍ درب

٣٨- حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب [١]

٣٩- واستعمل الجِد فيها غير مكترث بالجَد حتى كأن الجِد كاللعب[٢]

١- ويجدر هنا تعقيباً على هذين البيتين أن أذكر بعض ما جاء في وصف صلاح الدين(في كتاب صلاح الدين وعصره ... ص ٧ - ٨) حيث قيل فيه : كان تقياً ، مفتوناً بسلوك خلفاء الإسلام الأول ، يتحراهم في دقائق تصرفهم فيفعل فعلهم ... كان بعيداً عن التعصب لأن روح الإسلام غير متعصبة ، لقد تبرع بأموال سخية لكثير من الأوقاف المسيحية ... كان إنساناً استراتيجياً وهو أول من آمن - في عصور الانحلال - بأن مصدر القوة في الشرق الأوسط هو وحدة سوريا ومصر ومن هذه الوحدة التي حققها هو انطلق إلي بيت المقدس لتحريره ونجح في ذلك .

وفي ص ١١ جاء في وصفه : لقد عرف عن صلاح الدين أنه لا يواقع جيشاً إلا بعد أن يحدد زمن المعركة ومكانها وأنه يتوصل إلي ذلك بمهارة وجدارة لا تخلوان من سعة الحيلة والذكاء وأنه لا يخوض معركة إلا بعد أن يجهد خصمه في معارك ثانوية إلى تحين معركة الحسم .

٢- ويبدو في هذا البيت تأثر ابن سناء ببعض ألفاظ مطلع قصيدة أبي تمام السابق .

حيث ترى في هذه الأبيات أثر استخدام البديع (سواء كان حسن تقسيم أو مزاوجة أو طباقاً أو جناساً) . في تصوير جهاد صلاح الدين الذي به انصلحت أحوال البلاد ، وبقدرته السياسية والعسكرية الباهرة تحول اللهو والضعف إلي جد وقوة ، وتحولت أعباء النصر ومتطلباته من عز وقوة ومنعة إلي يسر وسهولة نظراً إلي علو همته .

وهكذا سجل ابن سناء في هذه القصيدة الأحداث وانفعل بها وعبر عن مشاعره وتجربته الواعية الصادقة .

وفي ختام حديثي عن هذه القصيدة أود أن أبدي اتفاقي مع ما قاله الدكتور الغباري[1] بخصوص هذا التناص الذي ربط بينها وبين قصيدة أبي تمام حيث رأي أن " التناص ليس استرجاعاً للمخزون التراثي فحسب ، أو استعادة للذاكرة الثقافية، أو تداخلاً للنصوص في العمل الأدبي دون فلسفة أو هدف ، وإنما هو عملية مقصودة لأهداف فنية ؛ فلا اختراع مطلق في العمل الأدبي ، ولا حياة لنص بمعزل عن النصوص الأخرى ، بل هناك تفاعل متبادل بين النصوص بحيث لا ينغلق النص المؤثر على نفسه . ولا ينعزل النص المتأثر عن سياق عصره ، أو عن سياق النص الذي استدعاه في زمن مختلف . وعليه يعيش الماضي في الحاضر ويتواصل معه قدر تواصل الحاضر مع الماضي ، ويغدو التناص مجلى للثقافة الأدبية الواسعة يقدر بها الأديب على المزج بين التقاليد والإبداع الفردي .

" وبهذا المفهوم ينطلق الإبداع من قلب التأثر بالتراث السابق ، إذ التأثير المتبادل بين الشعراء لا يعني أن احتذاء شاعر لشاعر يمثل بالضرورة تقليداً لا جدة

١- في مقدمة الديوان ص ق – وذلك في الرد على من قد يعتبر التناص لوناً من التقليد بدون ابتكار .. وترى له مثل هذا الكلام في كتابه نقد الشعر في مصر الإسلامية ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

فيه ، وإنما يعني عمق التفاعل بين الشعراء ، ويعكس الثقافة الرفيعة للشاعر الذي يستطيع أن يوظف ثقافته الأدبية في تعميق رؤاه الشعرية ، وإثراء خياله الفني بالاستعانة بما سبقه ، والإضافة إليه في آن . وهذا ما نحسب أن ابن سناء الملك قد عكسه في شعره الذي تناص فيه مع التراث العربي " .

هذا ولا ننسى أن مجرد الاختيار لمثل هذه النصوص القديمة يعبر عن لون من الإبداع .

وتأتي سنة ٥٨١ هـ وفيها قال ابن سناء الملك قصيدة سينية بلغت ثمانية وخمسين بيتاً بدأها بقوله [١] :

أمجلس لهوي ليس لي منك مجلس لأوحشت لما غاب عنك مؤنس

وهو يمدح فيها السلطان صلاح الدين ويدعو له بالشفاء العاجل بسبب مرض ألم به في هذه السنة وهو بحران ، وقد بعث بها ابن سناء إلي القاضي الفاضل ليقدمها إليه وهو بدمشق فأخر إنفاذها إليه لمرضه ، فلما شفى وعوفى هنأه ابن سناء بعافيته في أواخر ذ الحجة من هذه السنة بقصيدته الفائية التي بلغت واحداً وأربعين بيتاً والتي مطلعها [٢] :

نظر الحبيب إليّ من طرف خفي فأتى الشفاء لمدنف من مدنف[٣]

١- الديوان المذكور ص ١٧٢ – ١٧٦ .

٢- نفسه ص ٢٠٠ – ٢٠٢

٣- وقد أرسل ابن سناء مع هذه القصيدة خطاباً إلي القاضي الفاضل أشار فيه إلي قصيدته السينية التي صادفها – على حد تعبير ابن سناء – زحل في الطريق ، وحرمها التوفيق ، وأجاب عليه القاضي الفاضل رسالة يقرظ فيها هاتين القصيدتين . وقد جاء في هذه الرسالة : بأن القصيدة السينية ما وافقها زحل في طريقها ... وتأخرت لسيرتها مقترنة بالفائية لتكون البلاغة أكثر نفيرا ،ويكون بعضها لبعض ظهيرا ....فالمعلقات بعدها ذادت على عدتها ، وفضلتها هذه=

ومما قاله ابن سناء في قصيدته السينية مادحاً صلاح الدين ومصوراً جهاده:

٢١- وماذا يقول المدح فيه ومدحه ... بآثاره يروى ويقرا ويدرس

٢٣- ومن شاد داراً للجهاد فأصبحت ... بها الرمح يبني والحسام يهندس

٢٥- ويرسل عزماً للأعادي مبكراً ... فيأتيه فتح للأعادي مغلس

حيث تلمس ذلك التصوير الفني الرائع والشامل والذي جاء وليداً لصدق عاطفة الشاعر وقدرته الباهرة على التعبير عنها في صور جزئية وألفاظ بديعية يكمل بعضها بعضاً فترى الاستعارة المكنية بما فيها من تشخيص (يقول المدح فيه ..) يليها مراعاة للنظير (يروى ويقرا ويدرس) في البيت ٢١ مع تنوع أسلوبه بين الإنشاء والخبر ثم ترى التصوير الاستعاري المركب والمتمثل في تجسيمه للجهاد وتشخيصه للرمح والحسام في البيت ٢٣ (شاد داراً للجهاد ... الرمح يبني والحسام يهندس) بما في ذلك من تقرير وتوضيح لعبقرية صلاح الدين العسكرية وقدراته الدفاعية وعقيدته القتالية والتي جعلت الشاعر في البيت ٢٥ يعبر عن نتيجة ذلك كله بهذا التصوير الاستعاري الذي رأي فيه أن شهرة هذه الصفات في صلاح الدين جعلته منصوراً بالرعب لدى الأعداء حيث ترى قوله (يرسل عزماً) بما فيه من تصميم مثمر ، (يأتيه فتح) وما في التصوير كله من تجسيم وتشخيص .

وفي هذه القصيدة يعرض ابن سناء الملك بالمتقاعسين عن الجهاد والدفاع عن الأعراض من الملوك والعرب والمسلمين تعريضاً صريحاً بل وهجاءً لاذعاً، ومن ذلك قوله :

=بجودتها وجدتها .... (هامش الديوان ص ١٧٢ ، ٢٠٠) ، (ابن سناء الملك حياته وشعره) ص ٤٦ – ٤٧ .

٤٤- تشاركك الأملاك في الاسم وحده ولم يشركوا لما زكا لك مغرس
٤٥- وتلقى على رغم الأنوف أمورها لمن هو أرعى للأنام وأسوس
٤٦- يقولون ما لا يفعلون أما استحوا ومن يلق ما يلقونه كيف ينبس
٤٧- وقد كثروا الأقوال قبل لقائه فما بالهم ألوانهم تتورس

وقد استعان هنا في إبراز تعريضه وهجائه ببعض الصور الكنائية والتي لم يخل منها بيت من هذه الأبيات مع ما تراه في البيت٤٦(يقولون ما لا يفعلون أما استحوا)من تنوع في الأسلوب بين الخبر والإنشاء واقتباس مما جاء في القرآن الكريم[1] .

والأبيات كما ترى من شعر المقاومة الحماسي تحدث فيها الشاعر عن بطولة صلاح الدين وأنه شاد للجهاد داراً منيعة بناها الرمح وهندسها الحسام .

وفي القصيدة الفائية يعبر ابن سناء عن مدى الفرحة بشفاء صلاح الدين وأثرها وعن مدى حاجة الناس في مصر إليه حاجتهم إلي أبصارهم مستخدماً في ذلك التكرار بما فيه من إيقاع بجانب بعض الصور الفنية الموفقة مع الدقة في اختيار الألفاظ وتنوع البديع الذي طغت عليه المبالغة وإن كنت آخذ عليه في البيت الثاني من الأبيات الثلاثة الآتي ذكرها اضطراره أن يأتي بقافية قلقة لم تأت بمعنى جديد مما يظهر أنه أحياناً لا تسعفه الثروة اللغوية فيقع في مثل هذه الأمور حيث يقول:

١٩- جاء البشير بأن يوسف قد شفا مرض الزمانِ لأن يوسف قد شفى
٢٠- جاء البشير بيوسف يمشي على أثر البشير بيوسف أو يقتفي

١- سورة الصف آية (٢) .

٢٢- كان الملطف كالقميص ألا ترى أبصارنا ردت لنا بملطف [١]

كما ترى ابن سناء في هذه القصيدة أيضاً يعبر عن اصطفاء الله لصلاح الدين لنصرة دينه وحمايته والدفاع عن المسلمين وعزتهم وإغاثة الملهوفين وإرهاب المعتدين ، ويرى أن الله أكرم أن يضيع أمة بفقده بعد أن أمنت بعدله . حيث يقول:

٣٣- وقد اصطفاك الله ناصر دينه فنصرت دين المصطفَى والمصطفِى

٣٤- وحميت رسم الدين من أن يمّحى ومنعت نور الشرع من أن ينطفي

٣٥- وجعلت أكبر كافر متنصر يعنو لأصغر مسلم متحنف [٢]

٣٦- وسللت سيفاً مصلتاً للمعتدي وصببت سيباً مرسلاً للمعتفى

٣٧- والله أكرم أن يضيع أمة أمنت بعدلك بعد طول تخوف

وفي هذه الأبيات يوظف ابن سناء البديع الذي لا يخلو منه بيت [٣] كما ترى توظيفاً فنياً رائعاً في التعبير عن شعوره وشعور مجتمعه نحو صلاح الدين وآثاره العظيمة التي لا تنسى ولا تجهل بما في ذلك من تصوير فني مؤثر ضم

١- يشير (كما جاء في هامش الديوان ص ٢٠١) إلي قصة يوسف عليه السلام حين جاء البشير إلي يعقوب عليه السلام بقميصه وألقاه على وجهه فارتد بصيرا وفي النصف الأول من البيت صورة تشبيهيه ، وفي النصف الثاني صورة كنائية مع حسن التعليل .

٢- والوصف بالكفر في البيت من العبارات الشائعة في هذا العصر والتي سبق القول بأننا سنراها في أكثر من موضع من شعر ابن سناء وبأنه ليس بد للقارئ من أن يحملها على ظروف زمانها ويفهم مرماها في الأجواء التي أحاطت بها .

٣- حيث ترى مثلاً في البيت ٣٣ جناساً (المصطفى والمصطفى) والبيت ٣٤ طباقاً وحسن تقسيم وتوازناً بين الشطرتين (وجميت رسم ... ومنعت نور ...) ، والبت ٣٥ مقابلة (وجعلت أكبر ... يعنو لأصغر ...) والبيت ٣٦ حسن تقسيم وتوازناً بين الشطرتين (وسللت سيفاً .... وصببت سيباً ...) والبيت ٣٧ طباقاً (أمنت .... تخوف) .

بعض الصور الاستعارية مثل (نصرت دين ...) ، (منعت نور ..) أو الكنائية مثل(جعلت أكبر ... يعنو لأصغر) ، (صببت سيباً) ، أو الحقيقية (سللت سيفاً)

وفي شهر رجب من سنة ٥٨٢هـ قال ابن سناء قصيدة ميمية بلغت خمسة وخمسين بيتًا يمدح فيها الملك الناصر صلاح الدين ويرد فيها على ما كان قد زعمه بعض المنجمين أن ريحاً سوداء تخرج في ذلك الزمان ، وقد بدأها بقوله[1] :

١- سعودك ردت ما ادعاه المنجم وقد كذبته في الذي كان يزعم

ويستخدم فيها المبالغة والجناس مع التصوير الفني في بيان منزلة صلاح الدين العظيمة عند الله تعالى عن طريق ما يشتمل عليه هذا التصوير من كناية واستعارة فيقول مثلاً :

٤- وجودك أمن للوجود من الذي عن الريح يحكي أو به النجم يحكم

وقبل أن يسخر ابن سناء في هذه القصيدة بهؤلاء المنجمين لا ينسى أن يهنئ صلاح الدين بحلول شهر رجب وأن يؤكد له تهنئته التي قدمها له في القصيدة السابقة ببشرى شفائه مستخدماً في ذلك بعض البديع فيقول :

١٢- نهنيك بالشهر المرجب إنه يرجب فينه كاسمه ويعظم

١- الديوان ص ٢٩٠ – ٢٩٣ . وكان المنجمون في جميع البلاد (كما جاء في هامش الديوان ص ٢٩٠) يحكمون بهلاك البلاد والأموال والأنفس عند اقتران الكواكب الستة في الميزان، وخوفوا الناس في جميع البلاد حتى شرعوا في حفر مغارات وسراديب ونقلوا إليها الماء ، في انتظار تلك الليلة الموعودة التي عينها المنجمون ولكن شيأ ما لم يحدث بل اشتد الحر وامتنعت الرياح حتى تأخرت تزرية القمح والشعير ، فأشد الشعراء في ذلك ساخرين من المنجمين ، وفي ذلك قول أبو الغنائم بن المعلم :

قل لأبي الفضل معترفاً مضى جمادى وجاءنا رجب

وما جرت زعزعاً كما حكموا ولا بدا كوكب له ذنب

١٣- وبالـــبرء من بعد البشـــارة إنه لجسمك برء بعده ليس يسقم

١٤- ونشهد أن الشهر شهر مبارك عليـــك وأن البرء برء متمم

وفي هذه القصيدة ترى تصويراً رائعاً لمنزلة صلاح الدين العالية وقدراتـــه الباهرة وتعريضاً بغيره من الملوك الخاملين يستخدم فيه ابن سناء صـــوراً بيانيـــة كنائية مقرونة بما يأتي به من بديع ممتع إذ يقول مثلاً :

٢٥- ملكت أقاليم الملوك وإنمـــا سهرت وأملاك الأقاليم نوم

وفي مدحه لشجاعة صلاح الدين وقوة عقيدته وشدة هيبته وعفتـــه يمـــدح كذلك جيشه بهذه الصفات التي يراها ممتدة من قائده فيقول في هذه القصيدة :

٢٩- وجيش بـــه أســـد الكريهة غضـــب وإن شئـــت عقبـــان المنيـــة حـــوم

٣٠- يعفون عن كسب المغانم في الوغى فليس لهـــم إلا الفـــوارس مغنـــم

٣٣- وأنـــت الـــذي هـــذبتهم فتهـــذبـــوا وأنـــت الـــذي فهمتهـــم فتفهمـــوا

٣٤- وإنهـــم يـــوم الـــوغى بـــك أقدموا وأعـــداؤهم يوم الوغى بك أحجموا

٣٩- وما يعصـــم الكفار عنك حصونهم ولا شيء بعـــد الله غيـــرك يعصم

ومع صدق العاطفة لدى الشاعر وسعة ثقافته جاءت الأبيات بما فيها مـــن دقة التركيب وحسن التصوير والبديع في غاية من القوة والتوفيق فـــي التوضـــيح وشدة التأثير ، حيث ضمت الأبيات مثلاً من الصور البيانية استعارتين تصريحيتين مرشحتين في البيت ٢٩ مصوراً في ذلك الجيش بأسود غاضبة وعقبان للمنية حوم وقد تأثرت بصلاح الدين في شجاعته وخلقه بينما أصـــيب الأعـــداء بـــالخوف ، واشتمل كل بيت بعده على صورة كنائية .

كما ترى فيها من الدقة في التركيب ذلك التنكير فـــي بدايـــة البيـــت ٢٩ (وجيش) والقصر الذي تكرر في الأبيات ٣٠ (فليس لهم إلا الفـــوارس) ، ٣٣ (وأنت الذي هذبتهم ... وأنت الذي فهمتهم ...) ، ٣٤ (وإنهم يوم الـــوغى بـــك

أقدموا ... وأعداؤهم يوم الوغى بك أحجموا) ، ٣٩ (ولا شيء بعد الله غيرك يعصم) .

وترى فيها من حسن البديع حسن التقسيم والتوازن بين الشطرتين في البيت ٣٣ والمقابلة والتوازن بين الشطرتين أيضاً في البيت ٣٤ .

ويصور ابن سناء في حماسة واضحة مدى تنافس الناس في حبهم لشخصية البطل صلاح الدين في كل قطر نزل به ومدى حرصهم على التعلق به والتنعم بقربه والشعور بالوحشة والحزن لبعده – وذلك بما حققه للأمة من أعمال بطولية واشتهر به من صفات إسلامية – فيقول في هذه القصيدة :

٤٣- وكل مكان أنت فيه مبارك ... وفي كل يوم فيه عيد وموسم

٤٤- تغايرت الأقطار فيك فواحد ... لبعدك يبكي ، أو لقربك يبسم

٤٥- ولا شك في أن الديار كأهلها ... كما قيل تشقى في الزمان وتنعم

٤٦- ينافس فيك النيل " باناس " غيرة ... ويحسد لبناناً عليك المقطم [1]

ويبدو واضحاً ما جاءت عليه الأبيات من براعة التعبير وقوة التأثير بسب ما اشتملت عليه من تصوير ضم بعض الصور الجزئية كالاستعارة المكنية المرشحة بما فيها من خيال جذاب في البيت ٤٤ (تغايرت الأقطار فيك ...) وكذا النصف الأول من البيت ٤٦ (ينافس فيك النيل باناس ...) والصورة التشبيهية الخيالية في البيت ٤٥ (الديار كأهلها ...) والمجاز المرسل في النصف الثاني من البيت ٤٦ (ويحسد لبناناً عليك المقطم ...) بما اقترن به من خيال وما ضمه البيت كله من كناية وما في ذلك كله من تشخيص بجانب فنون البديع التي لم يخل منها

١- باناس : من أنهار دمشق ، وهو أحد فروع نهر بردى ... (هامش الديوان ص ٢٩٣م) .

بيت من هذه الأبيات التي تعطي مزيداً من المتعة الذهنية والإيقاع الملائم، هذا مع التوفيق في بناء الجمل .

وفي سنة ٥٨٣هـ يعد صلاح الدين جيشاً ضخماً لمنازلة الصليبيين ويأتيه المجاهدون من كل حدب بعد أن عرفوا أنه في طريقه إلي القدس [١] ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حطين [٢] المشهورة ويمحق جيشهم محقا بعد أن ألقى الله في قلوبهم الرعب وأحاط بهم المسلمون من كل جانب وهم يرددون قولهم الله أكبر ويولى هارباً ريموند صاحب طرابلس وريناالد صاحب صيداء ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ويقع في الأسر قادتهم وزعماؤهم جاي لوزيجنان وهيو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تبنين وجيرار مقدم الداوية ورايجنالد صاحب الكرك [٣] ، وتعم الفرحة الديار العربية التي طالما قاومت مع

١- وقد قصده العلماء والأدباء والفضلاء والصوفية من مصر وغير مصر بحيث لم يتخلف أحد من المعروفين عن الحضور ليشهد بعينه موقفاً من مواقف هذا البطل الكبير قيل فيه " إن لإيمان كله قد برز للشرك كله"(الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية ص ٧٧) .

٢- حطين : قرية بين أرسوف وقيسارية في شمال فلسطين (النجوم الزاهرة ص ١٥٢) .

٣- وقد بلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة في كتابه الروضتين : " من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل " . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايجنالد صاحب الكرك لما عرف عنه من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الإسلام فلم يسلم ، فسل خنجره وضرب ضربة قاتلة ورميت جثته على باب الخيمة وطمأن بقية زعمائهم غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والاسبتارية لحبسهم أنفسهم على قتال=

مرور السنين وحلمت بمثل هذا اليوم ، وكم تمنت بأن يخرج الله من أبنائها قائداً عظيماً يوحد صفوفها ويدير مقاومتها ويعمل لاسترداد ما فقدته عل أيدي الصليبيين المعتدين من وحدة وأرض وعرض ودين وكرامة ، وقد رأوا أن ذلك بدأ يتحقق يوماً بعد يوم على يدي صلاح الدين حتى كان ذلك اليوم يوم حطين الذي تحقق فيه على يديه النصر الأعظم على الأعداء .

وكان ابن سناء الملك من بين هؤلاء الشعراء العرب والمسلمين الذين سارعوا بتهنئة صلاح الدين ومدحه [1] بقصيدة نونية بلغت تسعة وأربعين بيتاً حيث قال فيها والبهجة تملأ صدره [2] (بهذا النصر التاريخي الكبير وبهذا التوحيد للبلاد العربية المتمثل في تحريره لبعض المدن والحصون العربية) :

١- لست أدري بأي فتح تهنا ... يا منيل الإسلام ما قد تمنى
٣- أنهنيك إذ تملكت شاماً ... أم نهنيك إذ تملكت عدنا
٤- قد ملكت الجنان قصراً فقصرا ... إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا
٨- لك مدح فوق السموات ينشا ... ومحل فوق الأسنة يبنى
١٧- قمت في ظلمة الكريهة كالبد ... ر سناً والبدر يطلع وهنا

=المسلمين . وغصت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير . (تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ص ٢٩ – ٣٠) ، (البطولة في الشعر العربي لشوقي ضيف ص ٨٩ – ٩٠) .

١- حيث تنافس الشعراء في وصف هذا اليوم العظيم الذي هو يوم حطين وتكاثرت القصائد عل صلاح الدين وهي تفد عليه من جميع البلاد الإسلامية وأصبحت هذه القصائد البليغة التي قيلت في ذلك اليوم تعرف في تاريخ الأدب العربي باسم القدسيات (الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجئ الحملة الفرنسية ص ٧٩ – ٨٠) .

٢-ديوانه المذكور ص ٣٤٠ – ٣٤٣ .

٢١- حملـوا كالجبـال عظماً ولكـن جعلتهـا حمـلات خيلـك عهنا
٢٣- لم تلاق الجيوش منهم ولكـــ نـك لاقيتهـم بـــلاداً ومـدنا

وينتقل ابن سناء إلي وصف ملوك الفرنج وهم وقوف بين يدي صلاح الدين وفي أيديهم وأرجلهم القيود وقد فقدوا كل شيء بما في ذلك صليب الصلبوت الـذي يتعبدون له ، وينظرون إلي من غدر منهم وأهدر دمه وهو يقتل أمامهم، فيقول في هذه القصيدة :

٣١- وتصيـدتهـم بحلقـة صيـد تجمـع الليـث والغـزال الأغنـا
٣٢- وجـرت منهـم الدماء بحاراً فجـرت فـوقهـا الجـزائر سفنا [١]
٣٣- صنعـت منهـم وليمة وحش رقص المشـرفـي فيهـا وغنـى
٣٤- ظـل معبـودهم لديك أسيـراً مستضامـاً فاجعل له النار سجنـا [٢]
٣٦- وحوى الأسر كل ملك يظن الد هـر يفنـى وملكـه ليس يفنـى
٣٩- كـم تمنى اللقـاء حتـى رآه فتمنـى لـو أنـه مـا تمنـى
٤٢- واللعين الإبرنس أصبح مذبـو حـاً تمنى لم يعدم اليوم يمـنا[٣]
٤٣- أنت زكيتـه فـوفيت نـذرا كنـت قدمته فجوزيت حسنـا

١- الخزير والخزيرة : شبه عصيدة بلحم ... والمراد أنه طحـنهم حتـى اختلطـت عظـامهم بلحومهم. وفي إحدى النسخ كما هو هنا (الجزائر) وليس (الخزائر) .

٢- يشير في هذا البيت إلي صليب الصلبوت الذي سلب بعد كثرة حطين ...

٣- في إحدى النسخ : واللعين الإبرنس أصبح مذبو حـاً يتمنى لم يقدم الدين يمنا .

وأما البرنس أرناط فكان من ملوك الفرنج الذين غـدروا بالمعاهـدة ، وقتـل بعـض المسلمين في الهدنة ، وسب الدين الإسلامي، فنذر صلاح الدين إن ظفر به ليقطعن عنقه . وقـد ظفر به وقتله وقصة ذلك متصلة في الروضتين ج ٢ص ٨١٠ ..(انظر هامش الديوان ص٣٤٣)

ثم كان مما ختم به قصيدته قوله :

٤٤- وتهـادت عـرائس الملـك تجلي وثمـار الأملاك منهن تجني

٤٥- لا تخص الشـآم فيـك التهـاني كـل صقع وكل قطر مهنى

٤٦- قـد ملكـت البـلاد شـرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزنا

٤٨- واغتدى الوصف في علاك حسيراً أي لفـظ يقال أو أي معنى

والقصيدة بشكل عام كما ترى مديح رائع ، وأتفق هنا مع الدكتور شـوقي ضيف [1] في أنها تحمل كثيراً من الصور المبتكرة ، حيث ترى فيها ابـن سـناء يصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور فتحه لمدن الشام وحصونه ويذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاءاً وفاقاً لسوء فعلـه وقولـه لتعرضـه القبـيح للحجـاج المصريين ولإعداده أسطولاً لغزو مكة والمدينة ، ولما نقل إليه عنه من اسـتخفافه بالرسول عليه السلام .

وفيها يصور صلاح الدين وقد بلغ من بطولته وشجاعته أنك ترى وجهـه متهللاً بالنصر مستبشراً كأنه البدر يسطع في دجنة الظلام ، وهو ينزل ضـرباته المتلاحقة لا على جيوش الصليبين فحسب ، بل على مدنهم وحصونهم ، فإذا هـي تفتح له أبوابها . كما يتصوره وفي يده أسراهم من الشجعان والنساء كأنـه صـائد ماهر يصيدهم بشباكه ، ويتعثرون فيها لا يستطيعون فكاكاً ولا خلاصاً . أما دماء قتلاهم فقد استحالت بحاراً وأنهاراً تعلوا فيها جثثهم وكأنها جزائر وسفن متحركـة (بما في ذلك من كناية عن غزارة الدماء بصورة خيالية) وقد استـسلم ملـوكهم خاسئين مدحورين ، ولم يغن ملكهم عنهم شيئاً ...

١- تاريخ الأدب العربي .. ص ٢٠٨ .

وهكذا أقبلت على صلاح الدين بلدان الشام تتهادى إليه وكأنها عرائس في جلوة الفرح البهيج ، وإن ثمار الأملاك لتلتقط منها وتقتطف اقتطافاً ، وإن صلاح الدين لخليق بما ملك من شرق البلاد وغربها وحزونها وسهولها ، ملكاً تصفق له البلاد على توحيدها وتحريرها طرباً وفرحا وتعجز الألفاظ عن الإحاطة بفضله وعلو منزلته[1] .

ولا شك أن هذا التصوير الفني الرائع لذي أفادته أبيات القصيدة إنما جاء وليد عاطفة حماسية نتجت عن تجربة شعرية صادقة عاشها الشاعر وجعلت كل قارئ لأبياتها يعيشها معه خاصة وأنها تجربة هامة وعامة تمس الدفاع عن عقيدة الأمة ووطنها وليس هناك أغلى منهما .

وقد ساهم في نجاحها ما اشتملت عليه الأبيات من صور بيانية جزئية يكمل بعضها بعضاً في أشكال بديعية تشد انتباه المتلقي وتستحوذ على فكره وإعجابه بما فيها من متعة ذهنية أو إيقاع تصويري ملائم خاصة مع الدقة المتناهية في اختيار الألفاظ وبناء الجمل .

حيث ترى أنه لا يخلو بيت من هذه الأبيات من صورة كنائية بالإضافة إلي أنك ترى مثلاً في البيت ١

(لست أدري بأي فتح تهنا يا منيل الإسلام ما قد تمنى)

تصريعاً وتنوعاً بين أسلوب الإنشاء والخبر ، وفي البيت ٣

(أنهنيك إذ تملكت شاماً أم نهنيك إذ تملكت عدنا)

حسن تقسيم وتوازناً بين الشطرتين وفي البيت ٤

(قد ملكت الجنان قصراً فقصرا إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا)

١- انظر البطولة في الشعر العربي د. شوقي ص ٩٢ بتصرف .

صورة كنائية وحسن تقسيم وتوازناً بين الشطرتين وفي البيت ٨

(لك مدح فوق السموات ينشا ومحل فوق الأسنة يبنى)

قصراً وحذفاً وحسن تقسيم ومبالغة وتوازناً بين الشطرتين وفي البيت ١٧

(قمت في ظلمة الكريهة كالبد ر سناً والبدر يطلع وهناً)

صورة تشبيهية وطباقاً وفي البيت ٢١

(حملو كالجبال عظماً ولكن جعلتها حملات خيلك عهنا)

صورة تشبيهية ومقابلة واقتباساً [1] ومبالغة . وفي البيت ٣١

(وتصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا)

صورة استعارية . وفي البيت ٣٢

(وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفنا)

صورتين تشبيهيتين ومراعاة نظير ومبالغة . وفي البيت ٣٣

(صنعت منهم وليمة وحشٍ رقص المشرفي فيها وغنى)

صورة استعارية بما فيها من تشخيص ومراعاة نظير . وفي البيت ٣٤

(ظل معبودهم لديك أسيراً مستضاماً فاجعل له النار سجناً)

صورة تشبيهية تشخيصية . وفي البيت ٣٦

(وحوى الأسر كل ملك يظن الد هر يفنى وملكه ليس يفنى) مبالغة وطباقاً .

وفي البيت ٣٩ (كم تمنى اللقاء حتى رآه فتمنى لو أنه ما تمنى)

طباقاً وفي البيت ٤٤ (وتهادت عرائس الملك تجلى وثمار الأملاك منهن تجنى)

صورة استعارية ثم صورة حقيقية . وفي البيت ٤٦

١- وذلك من قوله تعالى : " وتكون الجبال كالعهن المنفوش " آية (٥) من سورة القارعة .

(قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سـهلاً وحزنـا)

طباقين وتوازناً بين الشطرتين . وفي البيت ٤٨

(واغتدى الوصف في علاك حسيراً أي لفظ يقال أو أي معنى)

كناية ومراعاة نظير .

وفي السنة نفسها ٥٨٣هـ ترى مع هذه القصيدة لابن سناء في موقعة حطين (والتي أشاد فيها بفتح بعض المدن والحصون) قصيدة أخرى لامية بلغت سبعين

بيـــتاً [١] يمـدح فيها أيضاً الملك الناصر صلاح الدين ويشيد فيها بنزوله على الكرك وفتحه لمدينة نابلس [٢] .

حيث كان مما قاله في مدح صلاح الدين ونزوله على الكرك [٣] قوله :

٢٦- إذا راسـل الأعـداء يـوماً فـإنما كتـائبـه كالكتب والخيل كالرسل

٢٧- له صارم يشفي به الـدين صـدره وينجـز وعد النصر منه بلا مطل

١- الديوان المذكور ص ٢٢١ - ٢٢٦ .

٢- وحديث الشاعر هنا عن فتح نابلس يؤكد أن هذه القصيدة قد قيلت بعد الانتهاء مـن موقعـة حطين لأن فتح نابلس كان بعد هذه الموقعة كما كان قبل فتح بيت المقدس (وانظـر فـي ذلـك النجوم الزاهرة ... ط ٢٠٠٠ ص ١٥٢ - ١٥٤ ، تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ص ٣٠ ، البطولة في الشعر العربي ص ٩٠ .

هذا ولم أعثر لابن سناء (كما جاء في هامش الديوان ص ٢٢١) على أيـة قـصيدة وجهها إلي صلاح الدين بعد فتح هذه المدينة ، أو عند استيلائه على بيت المقدس . كذلك لم أر له قصيدة في رثائه ! .. .

٣- الكرك : اسم قلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء بين أيلة وبيت المقدس ، وهـي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض (هامش الديوان .. ص ٢٢٣) .

٣٥- هل الكَـرك الثكلى بأولادها انتهت عن النسـل ممـا جرعته من الثكل

٣٦- وكـانوا لهـا كالعقـد إلا أنه وهى وأضحـى لها جيش ابن أيوب كالغل

وفيها يصور ما يفعله صلاح الدين في تحريك جيشه نحـو الأعـداء بمـن يراسلهم بكتب ، (ويعني بها فرسان جيشه) ، ورسل (ويعني بها الخيل) ، وأنه بالتزامه بتعاليم الإسلام في قتال الأعداء يتحقق له شفاء الصدر وسرعة النصر على الأعداء .

كما يصور قلعة الكرك وقد أحاط بها جيش صلاح الدين بعد قتل من كـان حولها من الأعداء بالأم التي فقدت أولادها المدافعين عنها ، متسائلاً في تهكم هـل هذه القلعة (التي أصبحت تشبه الأم الثكلى) بعد هذه الإصابة القاضية التي حلـت بها تستطيع أن تأتي بمن يخلف هؤلاء القتلى الذين كانوا يحيطون بها ويحمونها .

وكان مما قال في فتحه لمدينة نابلس [١] قوله :

٥١- وصبحت أخـرى صبحتك بأهلها ومستـك إذ أمسيـت وهـي بلا أهل

٥٢- فنـابلس لمـا أن نـزلت بربعها أقـامت بهـم حق الضيافة والنـزل

٥٣- أحسوا بطل للخـريف فجـاءهم ربيـع من النبـل المسـدد كـالوبل

٥٨- يعانق في قتلاهم فيـه عـابـداً لصليب – بلا حب له – عابد العجل [٢]

٦٠- وكـانت بهم تلك البلاد تنجست فنـاب دم منهـم عن الماء في الغسل

١- نابلس : مدينة مشهورة في فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها ، كثيرة المياه . بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ (هامش الديوان ص ٢٢٤) .

٢- أشار بقوله (عابد العجل) إلي اليهود ، ولمح إلي قصة السامري وعجله الذي صنعه فـي غياب موسى عليه السلام (هامش الديوان ص ٢٢٥) .

وهنا يظهر قوة صلاح الدين وجيشه بتحقيقه لذلك النصر السريع بالقضاء على الأعداء وتحرير المدينة منهم في أسلوب تصويري يوحي بالاستهزاء بهم وبطلان معتقداتهم حيث يصور فيه أنه تم القضاء على المحتلين خلال نهار من يوم بسب كثافة الإصابات الموجهة إليهم ، بل يتخيل المدينة نفسها وقد قامت بواجب الضيافة لصلاح الدين بذبحهم ، ويكشف في تصويره عن عدم عبادتهم لله وأن الدم الذي سال منهم كان غسلاً لما أصاب هذه البلاد منهم .

ثم ختم قصيدته بتصوير حرص صلاح الدين على شكر الله والتزامه في جهاده بأوامره تعالى خلافاً لغيره من بقية الملوك العرب اللاهين الذين استحقوا التعريض بهم، بينما استوجب هو حب المسلمين بدون شك ، ومن ذلك قوله :

٦٤- تكبر فيها الله في الجامع الذي جمعت به بين الفريضة والنفل
٦٧- فقد شغل الأملاك عن شكر ربهم سوى أنت بالريحان والراح والنقل
٦٨- يقولون ما لا يفعلون أما استحوا من الملك المغنى عن القول بالفعل[1]
٧٠- فحبك مفروض على كل مسلم ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل

ويبدو أن الحماسة والرغبة ، (كما جاء في ص ٧٢ – ابن سناء الملك حياته وشعره) التي امتلكت الملايين المتطلعة إلي القضاء على الصليبيين جعلته ينسى نفسه في هذه القصيدة ولا يذكر شيئاً غير اعتزازه ببطولة الملك الناصر .

والحقيقة أن هذه القصيدة تتدفق فيها حرارة العاطفة ، وصدق الوطنية ، وثورة الشعب ، وأمله في القضاء على الغازين المعتدين .

١- يلحظ تطابق ألفاظ النصف الأول من هذا البيت (بما فيها من اقتباس وتعريض) مع النصف الأول من البيت رقم ٤٦ من قصيدة ابن سناء السينية والتي سبق الحديث عنها في هذا البحث .

وبالانتهاء من استعراض أبيات القصيدة السابقة أعود فأقول إنه كان لكل بيت من أبياتها دوره (بما ضمه من تصوير بياني أو بديع أو تركيب) في إتمام هذه الصور الفنية التي عبر بها الشاعر عما تزاحم بداخله من مشاعر وأفكار أثارتها موضوعات القصيدة .

حيث ترى مثلاً في البيت ٢٦

(إذا راسل الأعداء يوماً فإنما كتائبه كالكتب والخيل كالرسل)

صورتين تشبيهيتين وصورة كنائية وجناساً ومراعاة نظير ، وفي البيت ٢٧

(له صارم يشفي به الدين صدره وينجز وعد النصر منه بلا مطل)

صورة كنائية واستعارة مكنية وتنكيراً وقصراً وطباقاً ، وفي البيت ٣٥

(هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت عن النسل مما جرعته من الثكل)

استعارة مكنية مرشحة في أسلوب إنشائي استفهامي ، وفي البيت ٣٦

(وكانوا لها كالعقد إلا أنه وهى وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغل)

صورتين تشبيهيتين وصورة كنائية .

وفي البيت ٥١ (وصبحت أخرى صبحتك بأهلها ومستك إذ أمست وهي بلا أهل)

صورة كنائية وترديد وطباق وجناس . وفي البيت ٥٢

(فنابلس لما أن نزلت بربعها أقامت بهم حق الضيافة والنزل)

استعارة مكنية، وفي البيت ٥٣

(أحسوا بطل للخريف فجاءهم ربيع من النبل المسدد كالوبل)

صورة كنائية وأخرى تشبيهية ومراعاة نظير ، وفي البيت ٥٨

(يعانق في قتلاهم فيه عابداً لصليب – بلا حب له – عابد العجل)

صورة كنائية واقتباس [1] وفي البيت ٦٠

(وكانت بهم تلك البلاد تنجست فناب دم منهم عن الماء في الغسل)

استعارة مكنية ومراعاة نظير وطباق .

وترى في البيت٦٤(تكبر فيها الله في الجامع الذي جمعت به بين الفريضة والنفل)

صورة كنائية وجناساً وطباقاً ، وفي البيت ٦٧

(فقد شغل الأملاك عن شكر ربهم سوى أنت بالريحان والراح والنقل)

صورة كنائية وجناساً ، وفي البيت ٦٨

(يقولون ما لا يفعلون أما استحوا من الملك المغني عن القول بالفعل)

صورتين كنائيتين واقتباساً [2] ومراعاة نظير ، وفي البيت ٧٠

(فحبك مفروض على كل مسلم ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل)

صورة كنائية ومراعاة نظير وجناساً .

هذا ومما يلفت النظر في ديوان ابن سناء الملك أن شعر المدح فيه قد استغرق منه جانباً ضخما ، وأن هذا المدح قد جاء بعضه معبراً عن كل شعر المقاومة الذي جاء على لسان ابن سناء بما قد يحمله أحياناً من تعريض أو هجاء للأعداء أو للمتقاعسين عن الجهاد وقد رأينا منه هذه النماذج السابقة المختارة التي قيلت في مدح الملك الناصر صلاح الدين .

أما ما جاء من هذا المدح معبراً عن شعر المقاومة في غير صلاح الدين فقد كان من أبرزه ما وجهه ابن سناء إلي القاضي الفاضل الذي اتخذه

١– صورة الصف آية (٢) .

٢– سورة طه آية (٨٨) .

صلاح الدين – منذ توليه الوزارة للخليفة العاضد في مصر – كاتباً واسع العلم ذكي الفؤاد ، والذي كان – كما سبق القول [1] – خير سند لصلاح الدين في كفاحه حيث حمى ظهره بالعون والتدبير وحشد الإمكانات وتعبئة القوى في مصر لمدده .

وكان صلاح الدين يقول في حقه في الملأ من الناس : " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل "[2] .

لذا ترى ابن سناء في مدحه للقاضي الفاضل يحرص في العديد من قصائده على تصوير منزلة الفاضل وحسن تدبيره وآرائه وقوة تأثير قلمه وبيانه في إرهاب المعتدين وحشد طاقات الأمة وتوحيد صفوفها لمقاومتهم تأثيراً بالغاً يفوق قوة تأثير السيف في إرهاب هؤلاء المعتدين وقتالهم .

ولا شك أن ابن سناء بهذا التصوير وتكراره له في عدة صور إنما أراد أن يرسخ في الأذهان جانباً هاماً من أسلحة المقاومة ، وأن يبين أن القاضي الفاضل بهذا التصوير المتكرر لتأثير قلمه – بما فيه من شحذ للهمم – أصبح قدوة حسنة في المقاومة والجهاد يجب أن يقتدى به وأن يستمع له ولأمثاله .

وسأعرض أمثلة من ذلك – التصوير المتكرر في عدة صور – على مدى مرور السنين بينهما ، أبدأها بقوله من قصيدة في مدح الفاضل قالها في صباه: [3]

٢١– وآراؤه تثنـــى النصول بغيظها إذا لم يكن إلا الدماء خضاب

١– وذلك في هامش مقدمة هذا البحث في الحديث عن ترجمته .

٢– وترى ذلك القول أيضاً في هامش الديوان ص ٢٩٩ .

٣– الديوان ص ٣١ .

٢٢- فكل كتاب منـــه سيف مجوهر يـــروق إذا مـــا شمته ويهاب

٢٣- تجز معانيه الـــرقاب فقد غدا يخيـــل لي أن الكتـــاب قراب

ومن قصيدة أخرى أنشأها سنة ٥٧٠ هـــ في مدح الفاضل قال في ختامها: [١]

٢٢- فلله كتب منه إن أبصر العـــدى لهـــا مطلبـــاً لـــم يـــدفعوها عن الدفع

٢٣- وإن قيل عقبى خلعها قلب مفسد لقد زدت قالت ذا اختصاري وذا قنعي

ومن قصيدة يمدحه ويهنئه بعشر ذي الحجة سنة ٥٧٣هـــ قال فيها: [٢]

٢٦- إذا أردت ترى الأقدار جارية فانظر له قلماً من فوق قرطاس

٢٧- يسامر الفكر معنى ما يخط به يـــا حسنه سمراً في ليل أنقاس

ومن قصيدة يمدحه ويهنئه بمطلع عام ٥٧٤ هـــ قال فيها : [٣]

٥٢- وفاتك الرأي لا تدهى عزائمه من الوثوب ولا تؤتى من الخـــور

٥٣- في كفه قلم إن شئت أو قـــدر يصرف الخلق بين النفع والضرر

وفي البيت الأخير مبالغة غير مقبولة وقد خرجت عن المألوف ..(كما جاء في ابن سناء الملك حياته وشعره ص ٥٨) .

ومن قصيدة يمدحه بعد أن عاد من حجته الأولى سنة ٥٧٥هـــ إلي الشام

---

١ – نفسه ص ١٩٠ – ١٩١ . وفي الهامش قال العماد الكاتب " كنت عنـــد القاضـــي الفاضـــل بخيمته بمرج الدلهمية فأطلعني على هذه القصيدة ونسبها إلي ابن سناء الملك الذي لـــم يتجـــاوز العشرين من عمره ، فأعجبت بنظمها ، وقد كتب القاضي الفاضل بشأن هذه القصيدة رسالة إلي القاضي الرشيد جاء فيها : (وصلت القصيدة السعيدة التي لا عيب فيها ...) .

٢ – نفسه ص ١٧٩ .

٣– نفسه ص ١٥٦ .

قال فيها [1] :

٤٣- وإذا خـط باليـراعة خطـاً ... فهـو نـار تـذكـو وماء معين
٤٤- بشبـاً من ذلك القلـم المـر ... هف ترجى المنى وتخشى المنون
٤٥- لا تعجب له إذا صر إذ يكـ ... ـتـب خطـاً فللحسـام طنيـن
٤٦- قلـم أنحـل الحسـام سقاماً ... فطنيـن الحسـام منـه أنين

ومن قصيدة يمدحه ويهنئه بفتح صلاح الدين لعسقلان سنة ٥٨٣هـ قال فيها[2] :

٤٣- فبقـوله حـد الحسام مفللا ... وبـرأيه خد الهزبر معفـرا
٤٤- الرأي أبيض واليراع مسود ... فيقوم في حرب العدو مشهرا
٤٥- جعلت براعته الكلام للفظه ... عبـداً ولكنـا نـراه محررا
٤٩- فتح الشآم به وقـال زمانه ... إن كنـت فاتحـه فلن يتغيرَ

كما قال فيها في تهنئته :

١- نفسه ص ٣٣٤ . وفي هامش ص ٣٣٢ أنه أرسل مع هذه القصيدة إلي القاضـي الفاضـل قصيدة أخرى في مدح الملك الناصر ومطلعها (أبـى صـدها أن يجمـع لحـسن والحـسنى ووجدي بها أن أجمع الجفن والجفنا) .

وهي القصيدة التي بدأنا منها النماذج المختارة في مدح الملك الناصر في هذا البحث .

٢ - نفسه ص ١٦٠ . وفي هامش الديوان ص ٣٤٠ أن ابن سناء أرسل هـذه القـصيدة إلـي القاضي الفاضل مع قصيدته النونية التي قالها في مدح صلاح الدين وتهنئته إثر نصره العظيم في موقعة حطين وما اقترن به من فتح بعض الحصون والمعاقل ومنها عسقلان . وقد سـبق ذكـر نماذج في هذا البحث منها في مدح ابن سناء لصلاح الدين .

وفي هامش ص ١٥٧ أن القاضي الفاضل أجاب ابن سناء على هـذه القـصيدة التـي أرسلت إليه ووصلته وهو مريض بكتاب أوله : " وصل كتاب القاضي السعيد وقصيدته ، ووقفت من قصيدة القاضي السعيد على أدوية للشفاء ما كانت في قدرة الأطباء ...

٥٤- مـــن مبلـــغ بيسان سيدة القرى ... أن الهناء أتاك من أم القـــرى [١]
٥٥- فلو استطاع البيت أرسل حجره ... وفداً وأرسل بالهناء المشعـــرا [٢]
٥٦- ولقد أعـــدت لعسقـــلان روحه ... ورفعت شاهقه وكـــان مدمـــرا [٣]

ومن قصيدة يمدحه في سنة ٥٨٤هـ عندما شاع عوده إلي مـــصر ، قـــال فيها [٤] .

٢٦- وزير ملوك الأرض مـــن وزرائه ... يصرفهم من قوله النهي والأمر
٢٩- ومـــا فـــاته إلا الجيـــوش يجرها ... وقد جر منها ما يضيق به البر
٣٠- ولا فرق لولا اللون بين سلاحهم ... فـــآراؤه بيض ورايـاتهـــم صفر

وبعدها بأيام قلائل مدحه بقصيدة أخرى قال فيها [٥] :

٣٤- وزيـــر تجـــئ إليه الملوك ... وأولادهـــا ، عصباً في عصب

١- بيسان : قرية من قرى الشام ينسب إليها القاضي الفاضل ... وأم القرى : مكة المكرمة .

٢- الحجر ما حواه الحطيم المدار بالكعبة .... والمشعر بالمزدلفة وهو موقع مقدس .وهما بمكة

٣- عسقلان : مدينة بين غزة والرملة ، فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ بعد أن مكثـت فـي أيدي الصليبيين ٣٥ سنة وذكرها ابن سناء لأنها مسقط رأس القاضي الفاضل .

٤- نفسه ص ١٥٠ - ١٥١ . ومناسبة هذه القصيدة (كما جاء في هامش الـديوان ص ١٤٩) في سنة ٥٨٤ هـ رأى صلاح الدين أن يبعث بالقاضي الفاضل إلي مصر ليصلح شئونها المالية، فأرسل القاضي الفاضل إلي ابن سناء الملك يخبره بحضوره فأعد له هـذه القـصيدة غيـر أن ظروفا طارئة حالت بين الفاضل والذهاب ، فزفها إليه ابن سناء مع خطاب إلي دمشق ولما اطلع عليها القاضي الفاضل امتدحها في كتاب طويل ... .

٥- نفسه ص ٤٥ . ومناسبة هذه القصيدة (كما يفهم من هامش الديوان ص ٤٣) أن ابن سناء بعد إرساله للقصيدة السابقة بأيام قلائل علم بوصول القاضي الفاضل إلي القدس عازماً على السفر إلي مصر فعمل هذه القصيدة وأرسل معها كتاباً ... .

٣٥- فتسمع من رأيه ما تحب وتبصر من شخصه من يحب
٣٦- فأقلامه وهي سود الرؤوس كأعلامهم وهي صفر العذب
٣٧- أصاب بك الشام ما شاءه ولو لم تكن حاضراً لم يصب
٤٠- بميمون رأيك كان الفتوح ومنصور عزمك كان الغلب

وبعد السنة التي توفي فيها القاضي الرشيد والد ابن سناء سنة ٥٩٢هـ كان من قصائد ابن سناء في مدح القاضي الفاضل قصيدة قال فيها [١] :

٣٨- تأتي إليه الملوك وافدة ومن لها – لوله – يكون ندي
٤٠- تسمع رأياً ولا ترى خللاً فيه وسحراً ولا ترى عقدا
٤٢- وما سماء لهم بلا عمد انظر لأقلامه ترى العمدا

كما جاءت له قصيدة أخرى قال فيها [٢] :

٤٥- وله البلاغة نار جز ل إن أراد وماء مزن
٤٦- لسن يعيد المرهفا ت بألسن في الحرب لكن

وفي آخر قصيدة مدحه بها وذكر شكره لكتاب دار الطراز قال فيها[٣] :

---

١ – نفسه ص ١١٦ . وقد ذكر في البيت ١٤ من هذه القصيدة فقد أبيه حيث قال :

وقل من يفقد الرشيد أباً براً فيلقى من أمره رشدا

٢- نفسه ص ٣٤٦ . والقصيدة (كما جاء في هامش الديوان ص ٣٤٤) مملوءة بالشكوى من إهمال القاضي الفاضل له بعد وفاة والده، والشعور الناتج عن ذلك من جانب أعدائه الحاقدين . وانظر ما جاء من ذلك ص ٦٥ ابن سناء الملك حياته وشعره .

ومعلوم مما ذكر في هامش مقدمه هذا البحث أن القاضي الفاضل توفي سنة ٥٩٦ هـ .

٣- نفسه ص ٣٠٤ ، ٣٠٧ – ٣٠٨ . ودار الطراز : كتاب ألفه ابن سناء في فن الموشحات في عهد السلطان الأفضل بن صلاح الدين (٥٩٥ – ٥٩٦) – تاريخ الأدب العربي لشوقي ص ١٧٧ – ١٧٨ –

٥٨- وكـم لـه مـن قلـم والٍ علـى إقليـم
٥٩- وذاك إقليم من الـ هند لأقصى الـروم
٦٠- وذلـك المـوقوف من كتـابـه المـرقوم
٦١- ولفظه المنثور مثـ ل اللـؤلؤ المنظوم

وهكذا يبدو ما اشتملت عليه تلك الأمثلة المتعددة من صور فنيـة رائعـة ومتنوعة حيث رأينا في كل مثال منها صوراً جزئية واقعية أو خالية يكمل بعضها بعضا – مع ما ضمته من بديع وتركيب – في رسم صورة كلية تعبر بقـوة عـن منزلة الفاضل في جهاده التي اكتسبها مما عرف عنه من حكمة فائقـة وشـجاعة نادرة وبيان ساحر وتأثير قوي على إرهاب المعتدين وطمأنة المستضعفين وحفـز المجاهدين .

وقد سجل التاريخ للقاضي الفاضل رسالة كتبها إلي صـلاح الـدين سـنة ٥٨٥هـ في أشد الأوقات حرجا وذلك في حصار " عكا " فقد كان العـدو يـشدد الحصار ، وجند المسلمين قد طال بهم المقام ... فقال القاضي الفاضل :

" ... بينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب ، وقصد العدو قد خاب ، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعـاً للأكبـاد، مفتتاً للقلوب ولو أنها جماد ، .... والعيون ممدودة ، والأيدي مرفوعة بأن يفـرج الله عنا وعنكم بوصولها ، فمن شبع في هذه الأيام فما واسى المسلمين ومـن نـام ملء عينيه فما هو من إخوة المؤمنين ... فما الملوك وكل من يعـرف الأمـر إلا كأهل الصراط : رب سلم ، رب سلم ، فنسأل الله سبحانه ألا يكلنـا إلـي أنفـسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع ، ومجهود أهـل الأرض قـد انتهـى وبقـي مـا يفعله الله ... " .

وفي آخر هذه الرسالة تحميس وتشجيع ، ودفع إلي الصبر والثبات :

" ثم معاذ الله أن نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، (فلا تهنوا وتدعوا إلي السلم وأنتم الأعلون والله معكم) وهذا علي دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بثروة، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) واشتدى أزمة تنفرجي ، والغمرات تذهب ولا تجي ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب [1] "

ومن هنا كان للفاضل دوره العظيم فيما تحقق على يد صلاح الدين من توحيد للأمة وانتصار على الغزاة المعتدين ، الأمر الذي سمعه الناس من صلاح الدين نفسه عندما قال في الملأ منهم : " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل " .

ويكفي مثلاً أن تنظر إلي الأبيات المذكورة في المثال الأول والتي قالها ابن سناء في صباه [2]، حيث رسمت هذه الأبيات الثلاثة صورة كلية تعبر عن قوة آراء الفاضل ، وشدة وقع صياغتها وكتابتها وسحر بيان معانيها .

وقد استعان ابن سناء في رسم هذه الصورة مع حماسته وصدق عاطفته بصور جزئية وبتوظيف للبديع وتدقيق في التركيب ؛ إذ تراه مثلاً يأتي في البيت الأول منها باستعارة مكنية (آراؤه تثنى) بما فيها من تجسيم وتشخيص . ثم باستعارة مكنية أخرى (النصول بغيظها) بما فيها من تشخيص ، ويختم البيت بقصر (لم يكن إلا الدماء خضاب) يؤكد به ما أراد من تصوير مع التشبيه المؤكد

١- ابن سناء الملك حياته وشعره ص ٣٩ .

٢- الديوان ص ٢١ .

(الدماء خضاب) بما في ذلك من كناية عن القتال بالإضافة إلي المبالغة التي اشتمل عليها البيت .

وفي البيت الثاني تشبيه مؤكد بليغ (كل كتاب منه سيف مجوهر) مع كناية موحية بالقوة في نصفه الثاني (يروق إذا ما شمته ويهاب) .

وفي البيت الثالث استعارة مكنية في غاية من القوة والروعة مع المبالغة في تصوير شدة تأثير قلمه على الأعداء (تجز معانيه الرقاب) بما فيها من تجسيم ، ثم يختم البيت بذلك التشبيه البليغ أيضاً (يخيل لي أن الكتاب قراب) مع ما جاء في البيت من جناس موفق (رقاب – قراب) .

هذا وقد ضم ديوان ابن سناء قصائد أخرى في مدح القاضي الفاضل منها ما جاء مشتملاً على صور تتفق مع هذه الصور التي رأيناها – في الأمثلة التي تم عرضها – وذلك في رسم تلك الصورة المعبرة عن سمو مكانة الفاضل وشدة تأثير قلمه [1] ، بالإضافة إلي ما ضمه الديوان من قصائد أخرى في مدح الفاضل بشكل عام .

هذا ومما جاء من مدح ابن سناء تعبيراً عن شعر المقاومة في ذوى الملك من الأيوبيين في عهد السلطان صلاح الدين ومن بعده مدحه لكل من الملك المظفر

١– وتتمثل هذه القصائد في قصيدته في ص ٢٢ – والتي يمدحه فيها ويهنئه بعيد الفطر ، وقصيدته في ص ٢٨ – ، وفي ص ٧٢ – ، وفي ص ٩١ – ، وفي ص ١٠٦ – ، وقصيدته التي يمدح فيها الفاضل ويتنجز وعداً من السلطان ص ١١١ ص ، وقصيدته التي يمدحه فيها ويذكر فيها مساهمة الفاضل في إطلاق أسرى المسلمين ص ١٦٥ – ، وكذا قصيدته في ص ١٨٠ – ، وقصيدته التي يمدحه فيها ويهنئه بعيد النحر ص ١٩٥ – ، وقصيدته ص ١٩٨ – ، وقصيدته التي يمدحه فها بعيد النحر ص ٢٤٧ – ، وقصيدته التي يمدحه فيها ويشكره على عيادة له في مرضه ص ٢٨٦ – ، وقصيدته في ص ٢٩٧ – .

تقي الدين (ابن أخ صلاح الدين) والملك العزيز والملك الأفضل والملك الظاهر غازي أبناء صلاح الدين وكذلك عمهم الملك العادل .

فمن مدحه للملك المظفر تقي الدين قصيدته البائية التي بلغت واحداً وأربعين بيتاً والتي قالها فيه عندما عزم على فتح بلاد الغرب حيث قال فيها [1] :

ببذلك جهد النفس في طاعة الرب ... ٢٨- هنيئاً لك الملك الذي أنت ربه

تسوق إلي الصلبان قاصمة الصلب ... ٢٩- وبعثك للكفار هادمة القوى

فروحت من قلب وفرجت من كرب [2] ... ٣٣- وسيرك فينا سيرة عمرية

فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب [3] ... ٣٤- وردك فينا من سميك سنة

وقولي له : حسبى بملكك لي حسبي ... ٣٥- فيا مصر تيهى واستطيلي بملكه

وبالنظر في هذه الأبيات أرى أن ابن سناء قد استطاع أن يعبر بها عما أراده من مدح تصويري للملك المظفر مستخدماً كما ترى بعض الصور البيانية والفنون البديعية مع التنويع في تركيب الجمل ، لكني لا أشعر هنا من خلال أبياته بتجربة

---

١ – ديوانه ص ٩ – ١٢ . وكان المظفر صاحب حماة ، وقد أشار ابن سناء في هذه القصيدة (كما جاء في هامش الديوان ص ٩) إلي واقعة اقتران الكواكب في برج الميزان التي ذكرها المؤرخون تحت حوادث سنة ٥٨٢ هـ .

وقد سبق القول في هذا البحث أن ابن سناء قال قصيدة ميمية في هذه المناسبة مدح بها صلاح الدين . واسم المظفر : تقي الدين عمر وهو ابن أخ صلاح الدين وكان صلاح الدين يسير عسكراً بعد عسكر إلي بلاد المغرب الأفريقي لتوحيد البلاد العربية في محاربة الصليبيين المعتدين (تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ص ٣١ ، ٢٨) بتصرف .

٢– في إحدى نسخ الديوان (ففرحت) كما في هامش الديوان ص ١١ .

٣– في ص ١١ أيضاً ترى قوله (وودك فينا ...) . وواضح من هذا البيت اسم المظفر تقي الدين هو عمر . والمقصود بالفرض هنا العطاء ، وبالندب السريع في قضاء الحوائج .

شعرية عاشها الشاعر نتيجة لعواطف قوية ومعاناة صادقة تعطي مزيداً من الخيال الجذاب والصور الكلية أو الممتدة المؤثرة .

وأرى أن عقل الشاعر بفكره وثقافته كان له دوره الأكثر وضوحاً في الأبيات ؛ ولعل ذلك يرجع إلي إحساس الشاعر بأن الملك المظفر لم يكن إلا منفذاً لتوجيهات الملك الناصر صلاح الدين بجانب أن مناسبة القصيدة لم ترق إلي بعض المناسبات الأخرى التي أثارت الشاعر بقوة .

ففي البيت ٢٨ كناية عن شدة إخلاص المظفر لله (ببذلك جهد النفس في طاعة الرب) مع القصر الذي جاء عن طريق التقديم (هنيئاً لك الملك الذي أنت ربه) بالإضافة إلي الجناس (ربه – الرب) . وفي البيت ٢٩ كناية (هادمة القوى) واستعارة وكناية أخرى في نصفه الثاني (قاصمة الصلب) بالإضافة إلي الجناس (الصلبان – الصلب) . وفي البيت ٣٣ تشبيه تمثيلي ثم كناية على آثار الممدوح السارة بالإضافة إلي الجناس (قلب – كرب) . وفي البيت ٣٤ كناية عن التزامه بما سار عليه عمر رضي الله عنه في سرعة إغاثة المحتاجين . وفي البيت طباق (الفرض – الندب) باعتبار الحكم الشرعي بجانب التورية المهيأة فيهما إذ أن اللفظين يحتمل أن يكونا من الأحكام الشرعية وهذا هو المعنى القريب. ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى العطاء ، والندب صفة الرجل السريع في قضاء الحوائج وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وبذكر كلمة (السنة) تهيأت التورية فيهما . وفي البيت ٣٥ يعبر الشاعر عما يراه واجباً على شعب مصر نحو الملك المظفر من إعجاب به وافتخار في نصفه الأول عن طريق استخدامه للأسلوب الإنشائي (النداء)الذي جاء مشتملاً على المجاز المرسل (فيا مصر ...) هذا مع الكناية عن رضى شعب مصر عنه في نصفه الثاني باستخدامه لأسلوب الأمر(قولي له ...)

ومن مدحه للملك العزيز قصيدته الرائية التي بلغت أربعة وثلاثين بيتاً والتى منها قوله [1] :

٢٩- وسيفه كم سر من مسلم كما به قد ساء من كافر

٣١- وعاد بالنصر فأحيا بـه ذكـر أبيه الملك الناصر

وواضح هنا مثلاً ما في البيت ٢٩ من كناية عن كثرة انتصاراته على المعتدين الكافرين في شطرته الأولى وفي الثانية ، مع المقابلة بينهما . وما في البيت ٣١ من استعارة مكنية مركبة بما فيها من تجسيم ..

١- الديوان ص ١٢٦ - . وفي هامشه ص ٩٥ ما نصه : " الملك العزيز هو عماد الدين أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين ، ولي أمر مصر بعد وفاة والده سنة ٥٨٩ هـ . وكان يميل إلي حياة اللهو والفساد والعبث حتى راح ضحية ذئب كان يطارده عند الفيوم فوقع من فوق جواده في ٢٠ من المحرم سنة ٥٩٥ هـ حيث لقي نهايته " .

بينما يقول الدكتور محمد زغلول سلام عنه (الأدب في العصر الأيوبي ص ٤٣) ما نصه : وذكر المؤرخون أنه كان عادلاً كريماً حسن الطوية والأخلاق والعقيدة ، شديد الخوف من الله تعالى ، محباً للعلم والعلماء ، كثير الاستماع للحديث ، سمعه بمصر والإسكندرية وخالط الفقهاء ، وأغدق عليهم وسار في الرعية أحسن سيرة . والتف حوله جماعة من أمراء أبيه ورجال دولته الكبار ، وإن كان شغب عليه بعض جنده في أول حكمه عند توجهه إلي الشام . وضم بلاطه كثيراً من أدباء مصر وشعرائها من جماعة القاضي الفاضل أمثال ابن سناء الملك،وقد مدحه بكثير من القصائد .. وقد وشارك العزيز عمه في بعض وقائع بالشام ضد الصليبيين سنة٥٩٤هـ

وفي سنة ٥٩٤ هـ عندما توجه الملك العزيز إلي تبنين ، وحاصر الفرنج الألمانيين الذي قدموا من الغرب إلي الشام ، واستمر حصاره حتى انهزموا ، وفرج عن أهل تبنين مدحه ابن سناء بقصيدة رائية بلغت تسعة وعشرين بيتاً ومنها قوله[1]

١- الشـــام لـــلإســـلام دار القـــرار وكـــان من قبل طريق الفرار
٢- وكـــان في ظلمة ليـــل دجـــت فجـــاء عثمـــان معاً والنهـــار
٦- جئـــت " لتبنيـــن " ومن حولها قوم كأعداد الحصى للحصـــار
٩- ساق إليها الكفر أجناسه الـــ عظـــام قـــادتها الملوك الكبار
١١- إمـــا علـــى البر أتى راكضاً أو بجناح القلع في البحر طار
١٣- ويممـــوا الثغـــر وطافـــوا به وأحـــدقوا كـــالغل لا كالسوار
١٥- وكـــان ذاك الثغـــر مع أهله وقبل أن يحضره في احتضار
١٦- وكان أهـــل الكفر في جمرة فعنـــدما أظلـــت طاروا شرار
١٧- وانهزموا للبحر إذ أبصروا بحـــر وغى تغرق فيه البحار

وبعدها مدحه وهنأه بالقدوم من غزو بلاد الفرنج بقصيدة ميمية بلغت أربعة وثلاثين بيتاً ، قال فيها [2] :

١- قدمت بالنصر وبالمغنم كذاك قدوم الملك الأكرم

١- نفسه ص ١٣٢ - . وتبنين (كما في الهامش) : بلده في جمال بني عامر تطل على بانياس من دمشق وصور .

٢- نفسه ص ٢٩٤ - . وواضح من حديثه فيها عن إغاثة تبنين وتخليصها من الحصار وتهنئته بالقدوم من الغزو أنها جاءت بعد القصيدة السابقة . لذا ترى في هامش هذه الصفحة ما نصه : " وربما قيلت هذه القصيدة سنة ٥٩٤ هـ حين عاد الملك العزيز من الشام بعد فك حـصار أهـل تبنين الذين حاصرهم الألمانيون .

هذا ومن المعلوم أن الملك العزيز قد توفي في أوائل سنة ٥٩٥ هـ .

٣- يا سطوة الله على كافر ونعمـــة الله على مسلم

٥- أغثت (تبنين) وخلصتها فريسة من ماضغي ضيغم

١٣- فـــردها سالمـــة منهـــم من بعد مـــا قيل لها سلمي

وبالتأمل في الأبيات المعروضة من هاتين القصيدتين أرى الأبيـــات فـــي القصيدة الأولى منهما قد جاءت في شكل أسلوب قصصي تصويري خضع لفكـــر لشاعر وثقافته أكثر من خضوعه لوجدانه ؛ لذا ألمس فيها أن ما جاءت به من خيال أو مبالغة لم يكن وليد تجربة شعرية قوية عاشها الشاعر ، وبالتالي لم تصل إلـــي المتلقي بدرجة تجعله يتأثر بها ويعيش أحداثها كما ينبغي لها ؛ إذ أنها لم تخرج من قلب الشاعر حتى تصل إلي قلوب المتلقين ، مما ترك أثره على الأبيات فلم تـــأت متماسكة بالدرجة الكافية لتحقيق الوحدة الفنية بجانب ما قد تراه في بعض صورها من تكلف .

ومع ذلك فالأبيات تشهد بثقافة الشاعر وشاعريته ، وحسن توظيفه لبلاغته في التعبير عما يريد ، حتى وإن فقد حماسته لموضوعه أو لم يتوفر اقتناعه الكامل بممدوحه .

هذا وباستعراض هذه الأبيات لا يخفى على القارئ ما استعان به الـــشاعر في تصويره الفني من صور جزئية أو بديع أو تركيب ، أعانه على جمال تعبيـــره ووضوح معانيه .

أما الأبيات المعروضة من القصيدة الثانية فألمس فيها بوضـــوح إعجـــاب الشاعر الكبير ببطولة ممدوحه وحسن جهاده وإخلاصه ، وتهنئته له بتأييد الله تعالى له في إغاثته لأهل تبنين وتخليصها من أيدي المعتدين .

ومن هنا يبدو التجانس في أبيات هذه القصيدة أقوى بما اتحدت فيه من تعبير عن انفعال الشاعر وحماسته وفرحته ، وهو ما تلمسه في تصويره من تأثير قوي يجذب المتلقي نحو مشاركة الشاعر في وجدانه .

أما تلك اللبنات التي ساهمت في بناء هذا التماسك والتصوير فقد تمثلت فيما اشتمل عليه البيت الأول(قدمت بالنصر وبالمغنم كذاك قدوم الملك الأكرم) من الاستعارة المكنية والتشبيه مع حسن الابتداء والتصريع ، وما اشتمل عليه البيت الثالث (يا سطوة الله على كافر ونعمة الله على مسلم) من كناية بأسلوب إنشائي مع المقابلة بين الشطرتين وكذا التوازن بينهما ، كما جاء البيت الخامس (أغثت " تبنين " وخلصتها فريسة من ماضغي ضيغم) مشتملاً على مجاز مرسل مع تلك الاستعارة التمثيلية بما تحمله كذلك من كناية ، أما البيت الثالث عشر (فردها سالمة منهم من بعد ما قيل لها سلمي) فقد استعان فيه الشاعر بالكناية بما في ذلك كله من إيحاء يخدم هدف الشاعر من هذه القصيدة .

هذا ومن مدح ابن سناء للملك الأفضل [1] قصيدته الرائية التي بلغت اثنين وأربعين بيتاً ، والتي جاء منها قوله [2] :

١- سافر فوجه العيد سافر فلترجعن وأنت ظافر

١- الملك الأفضل هو نور الدين علي بن صلاح الدين ، ولاه والده قبل وفاته دمشق وبلاد الساحل وبيت القدس ، ولما مات أخوه العزيز حضر إلي مصر غير أن عمه الملك العادل استطاع أن يعزله ويلي مكانه ... هامش الديوان ص ١٠٢ ، ١٣ .

٢- الديوان ص ١٢٨ - . والأبيات الثلاثة الأولى مما استشهد به ابن سعيد على شاعرية ابن سناء في النجوم الزاهرة... ص ٢٨٥ .

٢- ولتظهـرن علـى عـدو ك إن حزب الله ظـاهـر
٦- ولتقصـرن بـك القيـا صر حين تكسر والأكاسر
٧- سر في أمان الله فالفتـ ح المبيـن إليـك سائـر
١٣- والمسجد الأقصى تشو ف أن يكـون إليك ناظر

إلي أن يقول :

٣٣- والنصر إرثك عن أب قد كان للإسلام ناصر

ثم يقول مادحاً لجهاده ومعرضاً بغيره ممن يجرون وراء الشهوات ويتركـون الجهاد في سبيل الله :

٤٠- وتهيم بالأسد الغضاب وهام غيرك بالجآذر

والأبيات المعروضة كما ترى جاءت معبرة عن استبشار الشاعر وتفاؤلـه بتحرك الملك الأفضل بجيشه لتأمين العباد وتحرير المزيد مـن الـبلاد بإرهـاب المعتدين وهزيمتهم مهما بلغت قوتهم وشهرتهم وذلك بفضل ما لمسه الشاعر فـي مدوحه من إخلاص للإسلام والتزامه به وتأييد الله تعالى له .

وقد جاءت الأبيات بأسلوب إنشائي طلبي حثاً مـن الـشاعر لممدوحـه ، وتشجيعاً لتحركه من أجل مقاومة المعتدين وإرضاء رب العالمين ، وحفزاً للرجال لشد الرحال إلي المسجد الأقصى ، مطمئناً الملك بأن النصر سيكون من نصيبه كما كان من نصيب أبيه .

وفي نهاية النموذج لا يفوت الشاعر أن يعرض باللاهين الغافلين من العرب والمسلمين بهذه المفارقة العجيبة المتمثلة في ذكره لما يفعله هذا الملك مـن جهـاد يقتدى به بينما يلهو هؤلاء بالجري وراء الشهوات غافلين عما فرضه الله من جهاد

وكما هو واضح فقد استعان الشاعر في نجاح هذا التعبير بداية باستخدامه للأسلوب الإنشائي الطلبي ثم الخبري ، كما استعان بألوان من البديع استطاع توظيفها مع بعض الصور الجزئية لتزيد من قوة التعبير في التصوير والتأثير .

ومن مدحه له أيضاً تلك القصيدة التي بلغت خمسة وثلاثين بيتاً ، والتي تحدث فيها عن بطولة ممدوحه منذ نشأته قائلاً [1] :

١٩- تملك طفلاً ، كما فضله تكمل والسن لم يكمل

٢٠- وقد نشأ الدين لما نشا وولى به الكفر لما ولي

٢١- أتى الفتح لما أتى سعده وأقبل في عمره المقبل

أما عن مدح ابن سناء للملك الظاهر غازي ، فقد جاء منه قصيدة بلغت خمسة وأربعين بيتاً ، قال فيها [2] :

١٥- ملك ملوك الأرض في أسره بالجود أو بالصارم الباتر

١٩- كم لأعاديه به عثرة وكم تراه عاذر العاثر

٢٠- ما جحدوا الفضل ولكنها عداوة العاجز للقاهر

١- الديوان ص ٢٣٥ - . وقد قال ابن سناء هذه القصيدة - كما جاء في الديوان - عند عبور الملك الأفضل عليه في عكا ...

٢- نفسه ص ١٢٣ - . والملك الظاهر غازي (كما في هامش الديوان ص ٢٣٨ ، ص ١٢٣ ، ص ٢٤٠) هو ابن صلاح الدين . ولاه والده قبل وفاته على حلب وجميع أعمالها مثل حارم ، وتل باشر ، وإعزاز وغيرها . وظل حتى انتقل الملك إلي أسرة عمه العادل . وكان الملك العادل يؤيده لكونه زوج ابنته توفي سنة ٦٣٠ هـ .

وفي وفيات الأعيان ط ١٩٩٤م ج ٤ ص ٦ - ٧ . هو : أبو الفتوح وأبو منصور غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملك الملقب الظاهر غياث الدين صاحب الموصل .. وكانت ولادته بالقاهرة في منتصف رمضان ٥٦٨ هـ .. وتوفي ٦١٣هـ .

٢٨- وفـــاز بالنص فأحيا به ذكر أبيه الملك الناصر

كما جاء فيه قوله من قصيدة مدح له بلغت سبعة وأربعين بيتاً [١] :

٢٤- هو الطاهر الظاهر المكرما ت والأروع العالم العامل

٢٥- مكـــارمـــه مـــا لها غاية ولجتـــه مـــا لهـــا ساحل

ومع عدم ظهور تجربة شعرية قوية أو وحدة عضوية في هذه الأبيات لكن الشاعر بحكم ثقافته استعان بما يستعين به عادة من صور بيانية وبديع وتركيـــب، فترى مثلاً من قصيدته الأولى في البيت ١٥

(ملك ملوك الأرض في أسره بالجود أو بالصارم الباتر) الكنايـــة مـــع المبالغة ، كما ترى ذلك في البيت ١٩

(كم لأعاديه به عثرة وكم تراه عاذر العـــاثر) مـــع الجنـــاس ، هـــذا بالإضافة إلي الاستعارة في البيت ٢٨

(وفاز بالنصر فأحيا به ذكر أبيه الملك الناصر)

أما البيت ٢٤ من قصيدته الثانية

(والطاهر الظاهر المكرما ت والأروع العالم العامل) فقد تميز بـــأكثر مـــن جناس مع حسن التقسيم ، كما تميز البيت ٢٥

(مكارمه ما لها غاية ولجته ما لها ساحل) بالكنايـــة مـــع الاســـتعارة وحسن التقسيم والمبالغة والتوازن بين شطرتيه .

هذا ومما يلحظ هنا إثر الانتهاء من استعراض نماذج المدح في أبناء الملك الناصر صلاح الدين أن ابن سناء لم يترك أحداً منهم في مدحه فيهـــا إلا وذكـــره

١- نفسه ص ٢٣٨ - .

بانتصارات أبيه باعتبارها دافعاً قوياً ونبراساً ساطعاً للسير على طريق المقاومة والجهاد والانتصار .

حيث سبق قوله للملك العزيز :

(وعاد بالنصر فأحيا به ذكر أبيه الملك الناصر)

وقوله للملك الأفضل :

(والنصر إرثك عن أب قد كان للإسلام ناصر)

وقوله للملك الظاهر غازي :

(وفاز بالنصر فأحيا به ذكر أبيه الملك الناصر)

بل إنه حتى في مدحه لعمهم الملك العادل الذي سنمثل له تراه يذكره كذلك بانتصارات أخيه الناصر صلاح الدين ، وذلك في قوله [1] :

منازلهم بين النجوم الزواهر غدا آل نجم الدين في ذروة العلا

كما نصر الإسلام منهم بناصر تعدلت الأيام منهم بعادل

وهكذا أصل إلي ختام هذه النماذج من شعر ابن سناء في المقاومة باستعراض بعض ما مدح به الملك العادل والذي جاء منه قصيدة رائية بلغت أربعة وستين بيتاً ، وقد قال فيها [2] :

١- الديوان ص ١٢١ . كما يلحظ بعض التشابه والاتفاق بين بعض الأبيات التي مدح بها الملك العزيز وبعض الأبيات الأخرى التي مدح بها الملك الظاهر الغازي كما يبدو من الديوان ص ١٢٤ ، ص ١٢٧ .

٢- نفسه ص ١١٨ - . الملك العادل الأول هو (كما في هامش الديوان ص ٢٢٧) سيف الدين أبو بكر أحمد ، استفاد من النزاع بين الأخوين : الملك العزيز عثمان والملك الأفضل حتى نقل ملك أخيه صلاح الدين إليه . وتوفي سنة ٦١٥ هـ . وكان يصغر أخاه صلاح الدين (المولود سنة ٥٣٢ هـ) بسبع سنوات . انظر صلاح الدين وعصره ص ١٢٤ . =

٣٣- تخـــر الجبـــال الشم خوف خيوله وتنـــدك رعباً قبل وقع الحوافر

٣٤- سنـــابكها بيـــن العـــريش وغـــزة وعثيرها بين العذيب وحاجر [١]

٣٥- يزور الأعادي في حصون شوامخ ويفصل عنها عن طلول دواثر

وفي هذه الأبيات يعبر ابن سناء عن نصر الله لممدوحه ولجيشه القوي الذي يقوده بقذف الرعب في قلوب أعدائه الذين سرعان ما تنهار حصونهم الشوامخ أمام قوة ضرباته وسرعة هجماته .

=وقد ظل بعد أخيه حتى أصبح في الحقيقة الوارث الحقيقي له وخلفه أولاده ومنهم ولده الكامل في مصر (الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية .... ص ٨٠) .

·هذا وقد جاء في كتاب الأدب في العصر الأيوبي سنة ١٩٨٠م ص ٤٣ ، ٤٥ قوله عن الملك العادل ما يلي : " وتولى العادل أمر مصر سنة ٥٩٦ هـ إلي جانب الشام التـي كانـت تولاها سنة ٥٩٢ هـ وأرسل إلي ابنه الكامل يستدعيه ، وولاه نائباً عنه بالديار المصرية ، ولـم يزل الملك الكامل ينوب عن أبيه إلي أن توفي ... ثم تولك الملك من بعده سنة ٦١٥ هـ " ....

" وكان العادل أبو بكر دون شك أقوى شخصية في البيت الأيوبي بعد صلاح الـدين ؛ وإن لم تكن بطولته في ميدان القتال أو انتصاراته شيئاً إلي جانب بطولات أخيه ، لكنـه اشـتهر بالدهاء والسياسة ... "

" وقد كان له من أولاده سند فأعانوه ، ورأي تمكن سلطانه قبل وفاته ، وكانوا على قدر كبير من النجابة والشهامة والكفاية والفضيلة ، فقد تولى ابنه الأشرف موسى المـشرق ، وابنـه المعظم عيسى دمشق ، وابنه الكامل مصر ، وكان يتنقل هو بينهم وإن كانت له سلطنة مـصر . وتولى أبناؤه الآخرون ولايات صغيرة أخرى في بلاد الشام والجزيرة ... "

١- بالغ في وصف جري الخيل إذ جعل حوافرها بين العريش وغزة ، وغبارها الذي تثيره بين العذيب وحاجر . والعذيب : موضع فيه ماء قرب " الفرما " في وسط الرمل وهـي مـن أرض مصر ... والحاجر : موضع قبل معدن النقرة (هامش الديوان ص ١٢٠) .

وأما مشاعر الشاعر القوية تجاه ممدوحه جاءت صورة الفنية معبرة إلي حد كبير عما أراد نقله إلي المتلقي بهذا التصوير الكلي مستعيناً في ذلك بما جاء به في الأبيات من تصوير بياني أو بديع أو تركيب .

إذ ترى مثلاً في البيت ٣٣

(تخر الجبال الشم خوف خيوله وتندك رعباً قبل وقع الحوافر) كناية واستعارة ومجازاً مرسلاً مع المبالغة والتأثر بحديث (نصرت بالرعب ..) .

وفي البيت ٣٤ (سنابكها بين العريش وغزة وعثيرها بين العذيب وحاجر) كناية ومبالغة وتوازناً بين الشطرتين وحسن تقسيم ، وفي البيت ٣٥

(يزور الأعادي في حصون شوامخ ويفصل عنها عن طلول دواثر) كناية ومقابلة بين الشطرتين .

ومما جاء من مدح ابن سناء للملك العادل أبي بكر قصيدة رائية أيضاً بلغت ستة وأربعين بيتاً ، قال فيها [1] :

(هزمت فيها جموع الشرك فانفطروا إن الزجاجة لا تقوى على الحجر)

حيث ترى الشاعر في هذا البيت يؤكد أنه بسبب هذا الفارق الكبير بين ما كان عليه ممدوحه من صفات القوة وما كانت عليه جموع المشركين من نقيضها كانت هزيمتهم الساحقة أمام قوته وقوة جيشه .

وفي البيت ترى كناية عن قوة ممدوحه واستعارة تمثيلية توضح الفارق الكبير بين قوة جيش الموحدين وجيش المشركين ، وطباقاً (انفطروا – تقوى) يؤكد هذا المعنى .

---

١ – نفسه ص ١٤٢ – .

وقد كان من مدحه له أيضاً قصيدة لامية بلغت اثنين وثلاثين بيتاً ، منها قوله [1] :

٢٠- أخلى ديار الكفر أولم يدع فيها خلالا حين جاس الخلال
٢١-وأوثق الأسرى فقد أصبحت غدائر القتلى لهم كالحبال
٢٢- سيف نضاه ذو العلا للعلي كما جلاه للهدى ذو الجلال
٢٣- أعلى به الله هوادي الهدى كما به هد ظلال الضلال
٢٥- فأصبح الإسلام في نضرة قد طال في غرته واستطال

هذا ومع انتهائي من استعراض النماذج المختارة من شعر المقاومة لابن سناء بما فيها من صور فنية ، والتي تمثل في ديوانه جزءاً من شعره في المدح يبقى أن أوضح بإيجاز عدة نقاط أراها لازمة لاستكمال هذا البحث حيث أرى في النقطة الأولى أن أقول - مؤيداً لما قاله الدكتور عوض الغباري [2] - إنه " إذا كان المدح أكبر موضوعات ديوان ابن سناء الملك ، فإن هذا يثير جدلاً نقدياً حول أصالة شعره ، ومدى قرب هذا الشعر من ذات مبدعه . فقد رأي جانب كبير من النقاد المعاصرين أن المدح في الشعر العربي وسيلة للتصنع الفني من أجل التكسب ، واستخدام للفن لإرضاء الممدوح على حساب الصدق الفني ، والابتكار الأدبي . وقد تمثل هذا الموقف السلبي من شعر المدح في نقد عبد العزيز الأهواني لشعر ابن سناء الملك [3] ..

١- نفسه ص ٢٢٧ - .

٢- مقدمة الديوان ص ي .

٣- وذلك في كتابه " ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر " ط ٢ سنة ١٩٨٦م ص٦-٠

" إذ رأي أن شعر ابن سناء مثلاً للشعر العربي في المديح ، لم يوظف للتعبير عن ذات الشاعر ، أو عمق أحداث مجتمعه وعصره ، خاصة الحروب الصليبية ، بل استخدم لتحقيق المنافع الشخصية " .

وبالنظر إلي هذه النماذج التي تم تقديمها من مدح ابن سناء الملك لصلاح الدين ورفاقه البارزين وأتباعه من بعده وما يبدو فيها من ارتباط وجداني عميق بأحداث الحروب الصليبية تجد خلاف رأي الأهواني الذي ذهب إلي أن ابن سناء الملك ومعاصريه قد أخطأوا مفهوم الشعر الذي يراه بعض النقد المعاصر تعبيراً ذاتياً من الشاعر وتنفيساً عن عواطفه ... بينما يراه البعض الآخر وسيلة لتحقيق وظيفة اجتماعية يقصد إليها الشاعر قصداً .

ويذهب الأهواني إلي أن ابن سناء الملك ومعاصريه كانوا يأخذون بهذا الرأي الثاني معللاً ذلك بقوله : " إذ إن أكثر ما اشتملت عليه دواوينهم من شعر يدخل تحت شعر المديح وما يشبهه مما يصرفونه في تحقيق مطالب لهم لدى الأحياء من معاصريهم " .

ولا مشاحة في أن الأساس النظري الذي بنى عليه الأهواني نقده لشعر ابن سناء الملك – كما يقول الغباري [1] – لا يمكن الخلاف حوله ، ولكن الخلاف هو في هذا التعميم المطلق على كل الشعر عند التطبيق ، فشعر الحروب الصليبية في مصر مثلاً ، وقد خصه الأهواني بنقده السلبي ، كان خير دليل على صحة مفهوم الشعراء المصريين للشعر من منطلق نظرة الأهواني نفسه ؛ إذ كان المدح فيه مبرراً إلي حد كبير ، وكانت الحماسة الدينية والوطنية وراء الصدق الفني فيه .

١– مقدمة الديوان ص ك .

وأرى أن من يقرأ تلك النماذج السابقة – المأخوذة من قصائد لابن سناء الملك – سيدرك أنها تعبير عن ذات الشاعر وعن أحداث عصره وعن الذوق الفني لهذا العصر .

وهناك كثير من الشعراء اتصلوا بالملوك ومدحوهم لا طمعاً في عطاء حتى وإن أمدهم هؤلاء الملوك ، ولكن عن حب راسخ منهم لطباع هؤلاء وصفاتهم النبيلة، وأول هؤلاء النابغة الذبياني مع النعمان ، واعتذارياته تشهد بذلك ، وكذلك زهير بن أبي سلمى مع هرم بن سنان الذي أقسم أن يعطيه كلما مدحه ، فكان زهير تحاشياً لهذا الموقف يمر بهم ويقول : عموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت . وغير هذين كثير ومنهم ابن سناء الملك في نماذج مدحه لصلاح الدين مع بعض نماذجه الأخرى ؛ حيث كان المدح في المقام الأول للأعمال والتي لا بد من أشخاص يقومون بها ، فيأتي المدح لهممن أجلها .

وأقول في النقطة الثانية إنه إذا كان " الحليّ " قد انتقد ابن سناء الملك لعامية بعض ألفاظه الشعرية ، فإنه لم ينكر فصاحته – بل شهد بفصاحة لسانه وفضل بيانه [1]– ، مما يعد دليلاً على قصد ابن سناء الملك إلي هذه العامية قصداً تجلت فيه خصوصيته الشعرية المصرية في لغته التي اقترب بها من العامية .

١– انظر كتابه " العاطل الحالي والمرخص الغالي " ص ١٣٤ ومن أمثلة ما ذكره له من استعمال للألفاظ العامية قوله (ص ١٣٤ نقلاً عن الديوان ص ٣٦٨) :

فمما له من اللفظ العامي قوله : (ساذجة لكنها ∴ بالحسن قد تذوقت)

" ولم يسمع في لغة العرب (الساذج) أبداً ، لكنه في لغة الصناع والنقاشين مع أضاف إليه من عامية لفظة (تذوقت) "

وقوله (ص ١٣٥ نقلاً عن الديوان ص ٢٠٦) : (خصر أدير عليه معصم قبلة∴ فكأنما تقبيله تعنيق) =

فإذا سلمنا بذلك – كما يقول الغباري [1] – فقد يمكن حل المشكلة اللغوية التي حددها الأهواني بالازدواج اللغوي الذى تجلى في تصوره ، في اتساع مسافة الخلف اتساعاً كبيراً بين لغة الحديث ولغة النظم في شعر ابن سناء الملك ، مما أدى إلي انفصال لغة الشاعر عن لغة الحياة المحيطة به في نظره [2] ، ورأيناه عكس ذلك ، لما تجلى في شعره من قرب إلي لغة الحديث ..

أما النقطة الثالثة فقد بدت من خلال استعراض تلك النماذج السابقة بما اشتملت عليه من صور فنية ، حيث يمكنني القول : إن اختلاف قوة التصوير والتأثير عن ابن سناء من نموذج إلي آخر إنما يعود إلى اختلاف درجة صدقه ومعايشته في تجاربه الشعرية ؛ إذ لم تكن كلها نابعة من وجدانه أو على درجة واحدة .

وقد ظهرت قوة التصوير بشكل واضح في فرحته بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين المعتدين ، وإعجابه بأخلاقه ، وذمه للمعتدين ، وتعريضه بالمتقاعسين ؛ لأن التجارب في هذه النماذج ومثلها تكون عامة وهامة حيث تمس العقيدة والدفاع عن النفس والأرض والعرض ، ومن هنا كان لحماسته وصدق معايشته ومعاناته الأثر الكبير في قوة التصوير .

=ولم يسمع للعرب في العناق هذه الصيغة . وإنما هي العناق والمعانقة .... .

وينتقد الحلي كذلك لفظة (معصم) لأنها جسم .... لكنه في هامش الصفحة يوضح قائلاً إنها (في الأصل : العناق . وواضح أنها سبق قلم ، إذ لا يستقيم الكلام بها ....) .

والحديث هنا عن العامية التي استخدمها ابن سناء ليس استطراداً بعيداً عن الموضوع لأن هذا النقد قد يقصد به التشكيك في شاعريته ولغته الفصيحة ، وقد يراد من ورائه هدم شعره كله .

١ – مقدمة الديوان ص ص .

٢ – ص ١٨ " ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر " .

الأمر الذي بدا أيضاً بصورة واضحة وهو يمدح القاضي الفاضل بما كان من صلته القوية بصلاح الدين وبه وما كان لحسن آرائه وتأثير قلمه وبيانه من آثار عظيمة في هذه الانتصارات على المعتدين .

ولعله من المناسب هنا أن أثير تساؤلاً عن سبب عدم وجود نص شعرى في ديوان ابن سناء في فتح بيت المقدس وهو الفتح الأكبر والأمل الأعظم الذي كان يعمل له صلاح الدين وتنتظره الأمة من حوله بما فيهم ابن سناء الذي عايشه إثر موقعة حطين التى مهدت له ، وقد أشاد بهذا الفتح جل الشعراء في عصره ومدحوا صلاح الدين وأجادوا[1]، الأمر الذي يجعلني أشك في سبب عدم وجود هذا النص .

إذ أنه ربما يكون قد اكتفى بما قاله في حطين ، وهي المفتاح والطريق الموصل للقدس ، ولم يجد جديداً يضيفه خاصة وقد قال شعراً في فتح بلاد أهون وأقل من القدس مثل عسقلان ونابلس . ومع ذلك يبقى في نفسي شئ من هذا الإهمال سواء منه بعدم مشاركته في هذا الفتح أو من الذين جمعوا الديوان [2] بعدم تسجيلهم لما شارك به .

وفي النقطة الرابعة أرى من المآخذ التي تؤخذ على ابن سناء الملك انعدام الوحدة الفنية في قصائد مديحه بشكل عام ، إذ ترى القصيدة الواحدة عادة تتعدد

١- وانظر من أخبار ذلك الفتح النجوم الزاهرة ... ص ١٥٤ ، وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ... ص ٣٠ ، والبطولة في الشعر العربي ص ٩٠ .

٢- وهذا الشك ينطبق أيضاً على خلو ديوانه من رثاء صلاح الدين الذي رثاه الشعراء جميعاً وبكوه بقصائدهم ودموعهم ، كما خلا من رثاء القاضي الفاضل .. ولذا أرجح (كما جاء في ص ٩٣ - ابن سناء الملك حياته وشعره) أن تكون قصائده في رثاء صلاح الدين والفاضل - إن كان رثاهما - قد فقدت وضاعت .

فيها الأغراض والأفكار دون أن يربط بينها رابط فني فيبدأ القصيدة مثلاً بالنسيب ثم يتحدث عن صفات الممدوح وأحياناً يفصل بين تلك الصفات ... وهو مظهر عام في الشعر الأيوبي بل الشعر العربي كله [1] .

وفي النقطة الأخيرة أقول: إنه بدا واضحاً مما سبق مدى إيمان صلاح الدين بدور القلم ومعرفته بمدى تأثيره في معارك التحرير ، الأمر الذي ظهر عياناً في قوله في حق القاضي الفاضل في الملأ من الناس : " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل " [2] وظهر واضحاً أيضاً في تشجيعه للأدباء والشعراء بشكل عام .

كما بدا واضحاً كذلك معرفة ابن سناء لدور القلم وتأثيره الذي قد يفوق دور السيف وتأثيره وذلك من خلال مدحه للقاضي الفاضل الذي رأينا نماذج منه ركز فيها ابن سناء على بيان حسن آرائه وتأثير قلمه ولسانه مما يعد رسالة هامة لكل صاحب رأي وقلم أن يكون على مستوى المسئولية خاصة في الأوقات التي تحتاج فيها البلاد والعباد إلي درء خطر المتربصين ودفع أطماع المعتدين .

وأخيراً ظهر في الديوان أيضاً معرفة ابن سناء للسانه وشدة تأثير قلمه وبيانه في أكثر من موضع ، منها بإيجاز قوله [3] :

١- كما حدث في قصيدته السينية التى مدح فيها السلطان صلاح الدين الديوان ص ١٧٢ - ، وانظر ابن سناء الملك حياته وشعره ص ٨١ - .

٢- الأدب في العصر الأيوبي ص ١٩٥ ، هامش الديوان ص ٢٩٩ .

٣- الديوان ص ١٢٥ البيت رقم ٣٦ . وهذا شعر فخر ، والفخر دائماً يميل إلي تمجيد الذات صدقاً أو كذباً ، ولكن الذي يشهد له في منزلة قلمه ما قاله الكثيرون ؛ حيث شهد له بالفصاحة والبيان والتفوق من سبق ذكر أبرزهم في مقدمة هذا البحث عند التعريف به.

ولي لسان في فمي لم يزل مثل حسام في يدَي شاهر

وقوله [1] :

ويغنيك لفظي عن حسام مجرد وتغنيك كتبي عن خميس عرمرم

وقوله [2] :

ولي قلـــم فـــي أنملـــي إن هززته فمـــا ضـــرني ألا أهز المهندا

إذا صال فوق الطرس وقع صريره فإن صليل المشرفي له صدى

هذا وقد ظل الاعتراف بقيمة القلم في إثارة الشعوب وقيادتها نحو التحرير والنضال ورأينا مثلاً الثورة الفرنسية كانت نتاج ما قاله الأدباء والخطباء . وسيظل القلم كذلك في كل شعوب الأرض التي تنافح وتكافح ضد الغزاة والمستعمرين . ويا ليت أهل القلم يدركون ما بين أناملهم من أقلام لو وجهوها نحو النـــضال لأفـــادت وصنعت الكثير .

١- الديوان ص ٢٨٥ البيت رقم ٥٦ .

٢- الديوان ص ٥٦٠ البيت رقم ١٦ ، ١٧ .

المراجـــــع

القرآن الكريم

١- ابن سناء الملك حياته وشعره : تحقيق محمد إبراهيم نصر مراجعة الدكتور حسين محمد نصار .الناشر دار الكاتب العربي للطباعة ولنشر بالقاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

٢- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : لعبد العزيز الأهواني الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م .

٣- الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلي مجيء الحملة الفرنسية: للدكتور عبد اللطيف حمزة مطابع دار القلم بالقاهرة .

٤- الأدب في العصر الأيوبي:للدكتور محمد زغلول سلام . ط دار المعارف سنة ١٩٨٠م

٥- البطولة في الشعر العربي:للدكتور شوقي ضيف.الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٨٤م

٦- تاريخ الأدب العربي ج ٥ : تأليف كارل بروكلمان نقله إلي العربية الدكتور رمضان عبد التواب . الطبعة الثالثة – دار المعارف .

٧- تاريخ الأدب العربي (٦) : للدكتور شوقي ضيف – عصر الدول والإمارات مصر– الشام . دار المعارف ١٩٨٤م .

٨- تاريخ الحروب الصليبية (الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس ج١: تأليف ستيفن رنسيمان – نقله إلي اللغة العربية دكتور السيد الباز العريني الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٩- تطور الصنعة الفنية عند شعراء البديع في القرنين الثاني والثالث الهجريين:دكتور عمر محمد سعيد – رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٨٦ / ١٩٩٠م

١٠- ديوان ابن سناء الملك : تحقيق محمد إبراهيم نصر – مراجعة الدكتور حسين محمد نصار – تقديم دكتور عوض الغباري . الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ٢٠٠٣م

١١- صحيح مسلم :للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى ٢٦١هـ - حقق نصوصه ... محمد فؤاد عبد الباقي- ط دار إحياء الكتب العربية - فيصل الحلبي .

١٢- صلاح الدين وعصره : تأليف ب . هـ . نيوباي - ترجمة ممدوح عدوان . تقديم دكتور سامي الجندي - الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

١٣- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : للدكتور جابر أحمد عصفور - دار المعارف ١٩٧٣م .

١٤- العاطل الحالي والمرخص الغالي : لصفي الدين الحليّ - تحقيق الدكتور حسين نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١م .

١٥- في النقد والأدب ج ١ : لإيليا الحاوي - دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٩م .

١٦- النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة : القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المُغرب في حلى المَغرب - تحقيق دكتور حسين نصار - مطبعة دار الكتب - الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠م .

١٧- نقد الشعر في مصر الإسلامية : للدكتورعوض الغباري . دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة .

١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٤ : لابن خلكان (٦٠٨-٦٨١) . حققه الدكتور إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

١٩- مجلة الأطام : العدد الحادي والعشرون ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م-المدينة المنورة